تاريخ المصريين ١٨

الجوارى
فى مجتمع القاهرة المملوكية

د . على السيد محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

تاريخ المصريين

١٨

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الغلاف : أسامة سـعيد

الاخراج الفنى : محمد قطب

الجواري
في مجتمع القاهرة المملوكية

د. علي السيد محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

تقديم

يسعدني أن أقدم للقارىء هذه الدراسة التاريخية لموضوع شيق في تاريخ مصر الاجتماعي ، وهو : « الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية » للمؤرخ الدكتور علي السيد محمود ، بكلية تربية الفيوم جامعة القاهرة .

ومن المعروف أن الرق لم يأت به الاسلام ، وانما وجد قبل الاسلام ، وكان دعامة ترتكز عليها الحياة الاقتصادية في شبه جزيرة العرب ، بنفس القدر الذي كان دعامة للحياة الاقتصادية في المجتمعات الأوروبية .

فعندما ظهر الاسلام كان المجتمع البشري يمر بمرحلة الرق في طريقه الى عصر الاقطاع ، ولما كانت علاقات الرق هي التي تتحكم في البناء الحضاري بأشكاله الدينية والقانونية والعقلية ، كما تقوم عليها في الوقت نفسه الحياة الاقتصادية للمجتمع ، فلم يكن في وسع الاسلام الا أن يقر علاقات الرق في سعيه لاجتذاب

المؤمنين من عرب شبه الجزيرة ، تمهيدا لنقله في الآفاق ولكن نظرا لأن الدين في صورته الأصلية ورسالته السماوية هـــو ثـورة اجتماعية تنقل البشر من المرحلة التي يعيشون فيها الى مرحـلة أرقى فلذلك حين أقر الاسلام الرق أقره في صـــورة تؤدى الى القضاء عليه تدريجيا ودون احداث انقلاب في حياة الناس يؤثـر على مصالحهم الاقتصادية وأمور معايشهم • وكانت طريقة الاسلام في تحقيق غايته تقوم على تضييق الروافد التي تمد الرق وتكفل بقاءه ، وقصره على رق الوراثة •

ولما كان قدوم أعداد كبيرة من الجوارى الى القاهرة يتطلب وجود أسواق خاصة هي التي عرفت باسم « أسواق الرقيق » • كما كان يؤثر بالضرورة على الحياة الاجتماعية ، بل والسياسية أيضا ، فمن هنا اهتم الدكتور على السيد محمود بدراسة هـــذه الظاهرة التاريخية ، مستعينا في ذلك بعدد ضخم من المصـــادر والمراجع التاريخية ، وألقى الضوء على معظم جوانبها كما يتمثل في هذه الدراسة ، التي آمل أن يجد فيها القارىء المتعة الفكرية التي يصبو اليها ، كما يجد فيها المتخصص الأكاديمى مـا يفيده ويضيف اليه •

والله الموفق •

رئيس التحرير

أ•د• عبد العظيم رمضان

يقصد بالجوارى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب ، حيث نص الشرع الاسلامى على عدم قتل النساء والاطفال اذا كانوا من أهل الكتاب « انظر الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١٢٥ — ١٢٨ ، ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٤٥ » أو كل امرأة نقلت قسرا من بلاد العدو ، على شريطة أن تكون غير مسلمة لأنــه لا يجوز فى الشرع الاسلامى لأى سبب من الأسباب أن تســــبى المسلمة أو تسترق ، أو هى التى تلدها أمة مملوكة ، ويكون أبوها عبدا ، أو غير مالك لهــا ، مسلمة كانت أو غير مسلمة ، أو هى التى تؤخذ شراء من أسواق الرقيق ، على ألا تكون أصلا من ديار الاسلام سواء أكانت مسلمة أم كتابية ، حيث فطن فريق من الناس الى ما للاسترقاق من قيمة اقتصادية ، فأقبلوا على بيع أولادهم وبناتهم من ذلك ما تشير اليه بعض المراجع من أن أهم تجارة اليهود الذين انتشروا فى بلدان الغرب الأوربى ما كانوا يصدرونه الى الشرق من الخصيان والاماء أى الجوارى السلافية ، حيث كان الناس من الجنس السلافى يبيعون أولادهم وبناتهم « سونيا هاو : فى طلب

التوابل ، ص ٤٩ » ٠ كما نســـمع أن ما كان يصـــل الى بلاد التركستان من الروايات والقصص عن أحوال المماليك فى مصر، وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة كان باعثا لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر » كذلك يذكر هايد "Hey : Hist. du commerce, II, p. 557." أن سكان تلك البلاد كانوا يبيعون أولادهم وبناتهم بسبب الفقر وقســوة الضرائب ، ولــكن لم يجد جميع الآباء ســوقا رائجة ، حيث لم يكن يبـــاع الا ســـليم البنية وذوو الملامــح الجميلة "Hed : Op. Cit., 11, pp. 558-559" كما فطن فريق من الناس الى الأرباح الهائلة التى يمكن أن يجنوها ، فأقبلوا على خطف الصغار والكبار من بنى الانسان رجالا كانوا أم نساء ، ثم باعوهم بيـــع السلع فى الأسوق « محمد عبد الرازق مرزوق : الناصر محمد ابن قلاون ، من سلسلة أعلام العرب ٢٨ ، ص ٦٨ » ٠ على أيدى النخاسين ، وهؤلاء ليس بوسعهم استرقاق المسلمات أو الكنابيات الذميــات اللائى يعود أصلهن الى ديــار الاسلام ، وانمــا يأتون بالرقيق من البلدان الغربية ، ويتاجرون به « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ١١٤ ـ ١١٥ » ٠

وهنا تجدر الاشارة الى أن الرق قبل الاسلام كان دعامـــة ترتكز عليها جميع نواحى الحياة الاقتصادية ، وتعتمد عليها جميع فروع الانتاج فى معظم أمم العالم ، وتحت تأثير هـــذه الظروف الاقتصادية ، أقر الاسلام الرق ولكن فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج ـ وهذا ما سوف نتنـــاوله فى موقف الاسلام من الجوارى فى السطور التالية ـ ودون أن يحدث ذلك أى أثر سيىء فى نظام المجتمع الانسانى ، بل ودون أن يشـــعر أحد بتغير فى مجرى الحياة ٠ ولقد سلك الاسلام فى سبيل تحقيق هذه الغاية مسلكين ، أحدهما تضييق الروافد التى كانت تمـــد

الرق وتغذيه وتكفل بقاءه ، وقصره على رق الوارثة « باستثناء أولاد الجارية من مولاها » ورق الحرب ، وهو الذى يفرض على الأسرى من غير المسلمين . بل وقيد الاسلام هذين الرافدين بقيود تكفل نضوبهما بعد أمد غير طويل . « أحمد خيرت : مركز المرأة فى الاسلام ، ص ١٩ ــ ٢٠ » .

ومن الطبيعى أن يتطلب قدوم أعداد كبيرة من الجوارى وجود أسواق خاصة وهى التى عرفت بأسواق الرقيق ، وكان لكل نوع من هؤلاء الجوارى سوق خاصة به ، فالجوارى السود كن يبعن فى أسواق أسيوط والقاهرة التى كان بها وكالة خاصة لجلابة هذا النوع من الجوارى ، وهى مركز تجمع الرقيق الأسود بصفة خاصة ، حيث يستطيع أى فرد أن يشترى منهن ما يشاء، وهذه السوق أو الوكالة كانت بالقرب من جامع السلطان قايتباى « نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ٢٢٤ ، عبد العزيز عبد الدايم : الرق فى مصر فى العصور الوسطى ، ص ٣٩ » كذلك كانت فى الفسطاط دار تسمى دار البركة أو بركة الرقيق كانت سوقا يباع فيها هذا النوع من الرقيق « السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١، ص ١٣٤ » كما كان فندق الحجر بالقاهرة مخصصا أيضا لبيع هذا النوع من الرقيق « ابن حبيب : تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص٣٥٦ المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٤٠٨ » .

أما الرقيق الأبيض بوجه عام والجوارى البيض بوجه خاص فكانت وكالة كشك وخان جعفر من أهم الأسواق التى يباع فيها هذا النوع « نعيم زكى : نفسه ، ص ٢٢٤ » بالاضافة الى خان مسرور وموضعه من باب الزهومة قرب الصاغة الحالية الى الجامع الأزهر ويجاوره حجرتان للرقيق ، ودكة للمحتسب لمراقبة ما يجرى من عمليات البيع والشراء ، لأن الشرع الاسلامى قد حكم على تاجر الرقيق الالتزام بعدة قواعد فيها مراعاة لصالح الجوارى ،

منهـا أنه لا يجـوز أن يفرق بين الجارية وولدهـا ، ولا يجوز بيع الجارية اذا كانت مسلمة لأحد من أهل الذمة « ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٢٣٨ » ٠

كما كان النخاسون يحتالون في ابراز جمال بعض الجوارى المعروضات هناك ، وفى اخفاء عيوبهن ، وقد كتب بعض العلماء رسائل فى حيلهم وخدعهم ، وفى فن تقليب الجوارى لمعـــرفة الطبيعى من المصطنع ، بعد أن غالوا فى تمويه ما يريدون ستره عن عين المشترى ٠ نذكر على سبيل المثال قول بعض النخاسين : « ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضـــة » ٠ حيث كانت الجوارى يخضبن حواجبهن بالدامك ، وأطرافهن ـ ان كانت الجارية بيضاء ـ بالخضاب الأحمر ، وان كانت صفراء بالأسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بالضـــد « آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ » ٠

كذلك ربما كان من أهم الأهداف من تواجد المحتسب بجوار هذه الأسواق هو مراعاة تحصيل الرسم الذى كانت تقرره الدولة على كل جارية يتم بيعها بتلك الأسواق ، ويتم تحصيله لصالح خزانة الدولة « صبحى لبيب : « الفندق ظاهرة سياسية » من كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، ص ٢٨٩ » ٠ بالاضافة الى أنه كان يشترط على سماسرة العبيد والجوارى ألا يبيعوا لأحد جارية حتى يعرفوا البائع ، أو يأتى البائع بمن يعرفه ، ويثبت اسمه وصفته فى دفتره لئلا يكون المبيع حرا ، أو مسروقا ٠ ومن أراد شراء جارية جاز له أن ينظر الى وجهها وكفها ، فان طلب استعراضها فى منزله والخلوة بها فلا يمكنه النخاس من ذلك الا أن يكون عنده نساء فى منزله فينظرون جميع بدنها ، أما بعد الاتفاق على عملية البيع ، فله

أن ينظر الى جميع بدن الجارية « ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٢٣٨ » .

ولعل هذا ما دفع الرحالة الألمانى فيلكس فابرى الذى زار القاهرة ١٤٨٣ م أن يقول فى وصفه لأسواق الرقيق هذه ، أنه كان يحق للمشترى أن يجرد هؤلاء الجوارى من بعض ملابسهن ويجعلهن يتحركن أمام عينيه وربما طلب منهن المشى بعض خطوات أو الجرى لمسافات بسيطة للتأكد من سلامة أجسادهن ، وفى بعض الأحيان يطلب منهن الانحناء يمنة ويسرة وهكذا للتأكد من خلوهن من العيوب والتشوهات الجسدية »
"Prescott : Once To Sinia pp. 178-168"

وهنا تجدر الاشارة أيضا الى أن الجوارى اللاتى يتصفن بصفات خاصة كن لا يبعن فى هذه الأسواق علانية ، لأن هذا يعتبر اهانة لهن ، لذا جرت العادة أن يتم البيع فى منزل خاص على يد النخاس بعيدا عن هذه الأسواق « أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٩ » . واتصفت الجوارى المجلوبات من كل بلد بصفة معينة ، فمنهم من لا تصلح الا للخدمة المنزلية، أو الرضاع وتربية الأطفال ، أو للمتعة والغناء والطرب والرقص. ولكل غرض من هذه الأغراض السابقة وغيرها جنس من الأجناس « عبد العزيز عبد الدايم : الرق فى مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤١ » . نذكر على سبيل المثال أن الجوارى الجنكيات ــ نسبة الى الجنك وهى آلة موسيقية تشبه العود ــ وهن طبقة من العازفات والراقصات ، كن فى الأصل من اليهود والأرمن واليونان أو المغول وعادة ما يلبسن ملابس الرجال والنساء معا وشعورهن طويلة مرخاة « ابن الصيرفى : انباء الهصر ، ص ٩١ ، حاشية رقم ١ » بينما نسمع عن كثير من الجوارى الحبشيات أنهن كن يتخصصن فى الغناء ، بينما الجوارى اللاتى من أصول أوربية ، فعادة ما كن

يتخذن كحظايا للسلاطين والامراء المماليك وعلية القوم وغيرهم ، ومنهن من تعمل فى الحانات « الخمارات » « المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٧٢٥ » · وعلى هذا الأساس فان أســواق الجوارى كانت تمتلىء بالجوارى من الرقيق المعتدل الجمال ، ويندر ان يكون فيهن حسناوات أو فنانات أو بارعات فى الجمال « جبور عبد النور : نفسه ، ص ٣٠ » ·

ولم تختلف أسواق الجوارى بوجه خاص والرقيق بوجـه عام فى تأثرها كغيرها من باقى الأسواق الأخرى التى انتشرت فى البلاد ، من حيث حالة البلاد السياسية والاقتصاديه ، وما ينتشر فيها من أوبئة ومجاعات وخلافهـا · مثال ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٨٤١ هـ ١٤٠٠ أيام السلطان الأشرف برسباى، من أنه بسبب انتشار الطاعون فى الفترة من رمضان الى ذى القعدة من تلك السنة ، فقد أغلق سوق الرقيق وتعطل بيع الرقيق فيـه لكثرة من يموت منهم « السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٠٤٧ » · كما أن جنوة كانت قد تخصصت فى تجارة الرقيـــق ، فكانت مراكبها تحمل الى مصر فى عصر سلاطين المماليك والى بداية القرن الخامس عشر للميلاد ما يقرب من ألف مملوك وجارية سنويا · هذا بخلاف التجار الآخرين من شتى الأجناس والذين قامت الحكومة باغرائهم بتخفيض الضرائب على هذه السلع أو الغائها · الا أنه يلاحظ أنه نتيجة لغياب الاستقرار السياسى على الحدود الشمالية لدولة سلاطين المماليك فى بلاد الشـام بعد انتهاء غارات تيمور لنك على الشام وآسيا الصغرى · مع هجرات القبائل التركيـــة وكثرة تحركاتها ، والتقلبات السـياسية التى صاحبتها · والتى أجهدت ميزانية مصر لكثرة ما أرسلته من حملات باهظة التكاليف لحماية هذه الحدود · كذلك كان لنجاح العثمانيين بعد لم شملهم وجمع كلمتهم بعد هزيمة أنقرة المنكرة أمام تيمور لنك سنة ١٤٠٢ م،

ثم تفوقهم العسكرى فى جنـوب آوربا ، وقيامهم بضرب بيزنطه ضربة قاضية بالاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م، وبذلك تحكموا فى أهم طرق التجارة بين جنوب روسيا والبحـر الأسود من ناحية ، وشرق البحر المتوسط من ناحية أخــرى ٠ وقيامهم باضطهاد جنوة ، مما جعل جنوة عاجزة عن تقديم العدد الكافى من الرقيق من منطقة البحر الأسود لسلاطين المماليك ٠

كذلك كان من نتيجة استشراء الفساد فى ميــدان التعامل النقدى عندما ضعفت القوة الشرائية للعملة المملوكية ، بعد أن قل تداول الذهب والفضة بشكل واضح منذ أواخر القرن الرابـع عشر وأوائل الخامس عشر للميلاد « عن ذلك راجع بحثنا عـن التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحـوال مصر المملوكية ،بحث مقدم لندوة العرب فى أفريقيا بجامعة القاهرة – أبريل ١٩٨٧ م » ٠ مما كان له أثره فى قلة جلب تلك الأعداد الكبيرة من الرقيق بوجه عام والجوارى بوجه خاص أواخر عصر سلاطين المماليك ٠ والدليل على هذا ٠ أنه عندما انتصر السلطان سليم العثمانى على الدولة الصفوية فى موقعـة تشالديران عـام ١٥١٤ م ، بعث الى خصمه الثانى وهو السلطان قانصوه الغورى، بعث اليه برسالة يتهكم فيها ويقول ان العملة المصرية قد انحطت قيمتها الى درجة أن تجار الرقيق يرفضونها ، وبالتالى لا يصل الى مصر العدد الكافى من المماليك ، كيما يحتفظ جيش مصر بقـوته المعهودة « صبحى لبيب : « سياسـة مصر التجـارية فى عصرى الأيوبيين والمماليك » ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد الثامـن والعشرين والتاسع والعشرون ، ١٩٨١ – ١٩٨٢ ، ص ١١٧ – ١٤٦ » ٠ بعكس ما كانت عليه الحال فى دولة المماليك الأولى أو البحرية – أى منذ منتصف القرن الثالث عشر وحتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى تقريبا ، حيث كان سلاطين المماليك يخشـون

تجار الرقيق على جلب الجوارى الى القاهرة بشتى الطرق . من ذلك أن السلطان المنصور قلاوون أرسل يعرف تجار الرقيق بأن « من أحضر منهم مماليك وجوارى فله من قيمتهم ما يزيد على ما يريد » « ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٨ ، ص ٨٥ » . كذلك يقال عن ابنه السلطان الناصر محمد أنه شغف بجلب الجوارى ، وبعث فى طلبهن وأغـرى التجار بالأموال الوفيرة « المقـريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٢ - ١٣ » . ويذكر المقريزى أنه فى سنة ٧٣٧ هـ « وفى حادى عشر ذى الحجة سافر خواجا عمر وسرطقطاى مقدم البريدية بهدية الى بلاد أزبك ، ومعهما مبلغ عشرون ألف دينـار لشراء مماليك وجوارى من بلاد الترك » « السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٢٣ » وفى سنة ٧٣٨ هـ يقول « وقومت مماليك وجوارى قدم بهـا التجار بستمائة ألف درهم » « السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ص٤٥٣» وما يرويه ابن فضل الله العمرى المؤرخ الشهير والذى عاصر فترة كبيرة من حكم هذا السلطان من أن « التجار الذين يصـلون اليه ويبيعون عليه ، لهم عليـه الرواتب الدائمـة من الخبز واللحم والتوابل والحلواء والعليق والمسامحات بنظير كل ما يبتاع عليه من الرقيق المماليك والجوارى » « مسالك الأبصار ، نشر وتحقيـق د. أيمن سيد فؤاد ص ٧٤ » .

ليس هذا فحسب بل يذكر المقريزى أنه كتب الى أعمال مصر ببيع الجوارى المولدات وحملهن اليه ، وأخذهن حتى من المغنيات، فزادت عدتهن عنده على ألف ومائتى جارية « السـلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ص ٥٤٦ » . بل أكثر من هذا انه كان اذا سمع بجارية تجيد فنا من الفنون فى دولة أخرى كان يرسل فى طلبها ويدفع الأموال الطائلة من أجلها ، مثال ذلك ما يذكره المقريزى فى سنة ٧٢٣ هـ من قول : « وفيها قدم من عند صاحب ماردين الجارية

التى طلبت : وكان المجد السلامي ـ ناظر الخاص السلطانى ـ قد بعث بأنه أراد شراء جارية جنكية من الأردوا ، فبذل صاحب ماردين فيها الرغائب لصاحبها حتى اشتراها ، وأن المجد سير يعلمه بأنه قد عينها للسلطان . فلم يعبأ بقوله وشغف بها . فكتب السلطان لصاحب ماردين بالانكار عليه ، وأن يحملها الى مصر ، فسير جارية غيرها مع مملوكين ، فلم يخف ذلك على السلطان ، ورد الثلاثة ، وقال لقاصده شفاها « متى لم يبعث بالجارية ، والا أخربت ماردين على رأسه « فلم يجد بدا من ارسالها ، فلما حضرت أنعم السلطان عليه بانعامات جليلة » ، المقريزى : السلوك ، ج٢ ، قسم ١ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ » .

ولقد حاكى كثير من كبار رجال الدولة والأمراء السلاطين فى اقتناء الجوارى . فنسمع مثلا عن الوزير ابن زنبور في عهد الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون أنه بعد أن تم القبض على ذلك الوزير ، وجد له سبعمائة من الجوارى « المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٨٨٠ » . كما نسمع من المصادر المعاصرة أن أبناء الطبقات الاجتماعية المختلفة اقتنوا الجوارى ، وكذلك أهل الذمة من النصارى واليهود ، فالمقريزى فى حديثه عن النصارى سنة ٧٥٤ هـ أيام الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد يقول أنهم اقتنوا الجوارى الجميلات من الأتراك والمولدات ، ولكن اشترط عليهم ألا يشتروا من الرقيق مسلما أو مسلمة « السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٩٢٢ ـ ٩٢٣ » .

ويبدو لنا أن الجوارى كن يشكلن كثرة عددية فى مجتمع القاهرة ، وعلى الأخص فى دولة المماليك الأولى ، بحيث لا نغالى اذا قلنا أنه قل أن تجد دارا الا وبها بعض الجوارى بدليل وجود « ضامن عليه مال مقرر يأخذه من كل من رد عليه عبده

أو أمتـه ، اذا أبقوا ـ أى اذا هربـوا تمردا أو عنـادا ـ فكان يتعدى حتى يأخذ من يجده من العبيد والاماء قد مضى لمولاه فى حاجة ، ويحبسه عنده حتى يصالحه مولاه على مال يدفعه اليه ٠» « المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٥٦ » ٠ بل يذكر المقريزى أن هذا الشخص المكلف بدفع ذلك الضـمان كان « يقيم من تحت يده رجالا على الطرقات لرد الهاربين ، ويقوم للديوان فى كل سـنه بمال » « السـلوك ، جـ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٨ » ٠ ودليل آخر نسوقه على شغف الناس باقتناء الجوارى حتى من طبقة العامة وهى الطبقة الدنيـا من طبقات المجتمع فى ذلك العصر ، فالمؤرخ ابن أيبك الدوادارى فى حديثه عن سـنة ٦٦٢ هـ أيام السلطان الظاهر بيبرس يؤكد ان احدى النسـاء وكانت تعمل « ماشطة » كان لديها جارية تخدمها « الدرة الزكية ، ص ١٠٤ » ، كذلك لم نسمع عن واحد من كبار رجال الدولة سواء من أمراء المماليك أم من الفقهاء أو التجار الا وكان لديه عـدد كبير من الجوارى يتناسب مع مكانته الاجتماعية ومركزه وثروته « ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ ١ ، ص ٧٧ » ٠

وعن أعمار الجوارى فالحقيقة أن المصادر العربية والأجنبية التى تحدثت عن الجوارى فى مجتمع القاهرة فى العصر المملوكى ولو على شكل اشارات قد بخلت علينا فى هذا المجال ، الا أننـا من خلال مجموعة وثائق الجينيزا التى تم العثـور عليهـا فى الفسطاط والخاصـة باليهود المصريين الذين عاصروا تلك الفترة التى نتحدث عنها ، هذه الوثائق التى تم تهريبها خارج مصر ، وقام على دراستها مجموعة من العلماء وبخاصة من اليهـود ٠ هذه الوثائق تشير الى ولع الناس فى ذلك العصر بأن يحصلوا على الجوارى وبخاصة صغيرات السن ٠ فنسمع عن أحد التجـار أنه قد أرسـل لزوجته من الهنـد جارية بلغت من العمر سنة

سنوات • كما أن احدى الجوارى وكانت تدعى « دهب » قـد منحتهـــا احدى الأرامل لأخيها ، وكانت تبـلغ من العمر ثلاث سنوات • كذلك نسمع عن سيدة من ســـيدات الفسطاط قد سألت أحد أقاربها وهو ممن يشتغلون بالجهاز الادارى الحكومى فى البهنسا أن يشترى لها جارية سوداء ما بين خمس ســـنوات وست سنوات • وربما هذا الحرص على شراء الجوارى فى ســن صغيرة كان الدافع اليه هو الرغبة فى تدريبهن فى هذه الســن الصغيرة ، وتعليمهن كل ما يتعلق بالشئون المنزلية بما يتلاءم وطباع أهل المنزل ، فضـــلا عن غرس التعـــاليم الدينية بديانة أسيادها • سواء المسلمين ام أهل الذمة ، ومن المرجح أن هـــذا كان فيما يتعلق بجوارى الخدمة المنزلية "Goitein : A Medit. — Society. Vol. I, pp. 135-136" كما نسمع عن اقبـــال كثير من الســـلاطين والأمراء المماليك على شراء الجوارى المولدات أى اللاتى نشأن نشأة محلية وفى أعمار متوسطة أى فى ريعـان الشباب بعد أن يكن قد تحلين بالمحبب من الخصـــال ، والجميل من الفنون ، وأصبح لهن مناعة العربيات من حيث دوام جمالهن ، ودل الأعجميات من حيث البراعة فى أسر قلوب مواليهن ، فاذا وقعت احداهن فى يد نخاس تفنن فى تزيينها وتعطيرها والدعوة لها ، وحافظ عليها محافظته على مقلتيه ، لما يأمل من ورائها من مال وفير ، وربح جزيل ، يغنيه عن عناء السفر البعيد فى السعى والتفتيش « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ٢٨ » وان كان هذا لا يمنع من اقتنائهن الجوارى البارعات فى الجمال أو فى فنـــون الطرب والغناء والرقص فى أعمار أكبر قليلا •

وفيما يتعلق بديانة الجوارى ، فكما أنهن متعددات المصادر والأجناس والألوان ، فهن مختلفات أيضا فى الدين • ينتمين عادة الى الاسلام أو النصرانية أو اليهودية ، أو العبادات الوثنية التى

كانت شائعة آنذاك ٠ وأما الوثنيات الأصل فيسارعن الى اعتناق الاسلام دينا ٠ وكثيرا ما تتحول الكتابيات أنفسهن الى الدين الاسلامي ، اما لما يجدنه من سماحة الاسلام والمسلمين وعدم التعصب ، أو تقربا من أسيادهن الذين كانوا يحررون بعضهن للتزوج منهن زواجا شرعيا ، وينتقلن الى الاسلام ، لأن الاختلاف فى الدين يؤدى حتما الى ألا يرث أحدهما الآخر ٠ ولم يكن اعتناقهن الدين الجديد بالأمر الصعب المنال ، بل ينحصر ذلك بأن تنطق الجارية بالشهادتين أمام أحد الشيوخ ، والذى يقوم بكتابة نص خاص بهذه المناسبة جرى العرف عليه يثبت فيه اسلامها « النويرى : نهاية الأرب ، جـ٩ ، ص ١٤٥ » ٠ أما الجوارى اللاتى يبقين فى الرق فيحافظن فى أغلب الأحيان على دينهن القديم ، ويقمن بشعائره ويتقيدن بنواهيه ، ويتساهل أسيادهن معهن فى ذلك ، فلا يكرهوهن على تغيير عقيدتهن ، وانما يحترمون دينهن ، ويسهلون لهن القيام بالطقوس فى المواسم والأعياد ٠ « جبور عبد النور : نفسه ، ص ٨٨ » ٠

وعن مصادر الحصول على الجوارى فقد كانت كثيرة ومتعددة يأتى فى مقدمتها سبايا الحرب التى شنتها دولة سلاطين المماليك سواء ضد الصليبيين الذين احتلوا جزءا عزيزا من الأرض العربية ببلاد الشام وكونوا لهم مستوطنات فى كل من الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، وبذلك كانت الحملات التى تقوم بها دولة سلاطين المماليك على تلك المستوطنات الصليبية وحتى سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية ببلاد الشام عام ١٢٩١ م على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون من أهم الوسائل للحصول على الجوارى من الفرنج ، وفى ذلك يقول ابن أيبك عقب الاستيلاء على عكا حيث هاجم المسلمون المدينة « وأسروا الأولاد الصغار ، وأعادوهم مماليكا ، وأمهاتهم جوار » « الدرة الزكية ، ص ٣١٠

فى حوادث سنة ٦٩٠ هـ » . كذلك كانت الحملات التى قام بهـا كثير من السلاطين لتأمين أطراف الدولة المملوكيـــة من المغيرين عليها أو من أعدائها ، من المصادر الهامة لهؤلاء الجوارى ، مثال ذلك ما حدث سنة ٦٧٣ هـ أيام السلطان الظاهر بيبرس عندما خرجت تجريدة الى بلاد النوبة ـ المسيحية حتى ذلك الحين ـ كان السبب فيها أن ملك النوبة دخل الى أسوان ، ونهب ما فيهـــا وأحرقها ، فلما وصل أمراء التجريدة من المماليك الى بلاده انكسر أشد كسرة ، وغنمت عساكر السلطان منه ومن أقاربه غنـــائم كثيرة من عبيـــد وجوار وخيول وغير ذلك « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٣٥٥ » . ومثال آخر يذكره لنـا المقريزى أيام السلطان الأشرف برســـباى سنة ٨٢٩ هـ عقب استيلائه على جزيرة قبرص ، التى كانت من أهم المعاقل الصليبية بعد طرد الصليبيين من بلاد الشـــام ، وشن الصليبيون فيهـــا بمساعدة أهلها الحملات تلو الحملات على المدن والموانى المملوكية، وأغاروا على السفن التجارية ، فعندما حضر رجال الحملة المظفرة ومعهم الغنائم ومن وراء الغنائم الأسرى من الرجال والسبى من النساء والصبيان ، وهم زيادة على ألف انسان « السلوك ، جـ٤ ، قسم٢ ص ٧٢٥ » . كذلك كانت بلاد الأرمن فى آسيا الصغرى من المصادر الهامة للحصول على الجوارى ، وذلك لأن الأرمن كانوا يمثلون عددا خطيرا لدولة سلاطين المماليك ، فهم الذين تحالفوا مع الصليبيين منذ قدومهم الى بلاد الشـــام عام ١٠٩٧ ورحبوا بهم ، وأرشدوهم الى الدروب والمسالك التى توصل الى بـلاد الشام ، بل وكانوا لهم بمثابة قوات مساعدة مهدت لهم الاستيلاء على كثير من الحصون والقلاع والمدن الشامية ، فضلا عن أنهـم حالفوا العدو الثانى لدولة سلاطين المماليك وهم المغول ، لذلك لم تتوان سلطنة المماليك فى ارسال الحملات الواحدة تلو الأخرى للاغارة عليهم حتى تم اخضاعهم فى منتصف القرن الثالث عشر

للميلاد واستقرت منهم جالية كبيرة فى القاهرة منذ عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون وهم الذين لعبوا دورا خطيرا فى نشر كثير من الأمراض الاجتماعية فى القاهرة فى ذلك الحين ، « عن ذلك راجع : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٣٠ » .

بالاضافة الى ما سبقت الاشارة اليه من أن القاعدة فى الحصول على الجوارى هى شراؤهن من أسواق الرقيق ، فقد كانت بمصر والشام كغيرهما من مدن الشرق أسواق للرقيق ، ودلالون لبيع الرقيق بنوعيه ، الأبيض والأسود وهم الذين يجلبون الرقيق من مناطق مختلفة مثل بلاد الروم والهند « عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغورى ، ص ١٨» .

كما تشير المصادر المعاصرة الى أن التجار المصريين كانوا يصلون الى أهم أسواق الرقيق فى بلاد التكرور - ويقصد بها بلاد وسط وغرب أفريقيا - مثل مدينة « كومبى » عاصمة غانا آنذاك للحصول على الرقيق ، والذين كان يتم جلبهم الى مثل هذه الأسواق عن طريق الاغارات على القبائل الوثنية التى تعيش على الحدود الجنوبية لمنطقة السافانا ، وهم الذين اشتهروا عند العرب تحت اسم « اللملم » أو « الدمدم » أو « الدمادم » . لكن يلاحظ أن أعدادا كبيرة من هؤلاء الرقيق كانت تهلك عقب وصولها الى مصر ، وربما كان السبب فى ذلك هو اختلاف المناخ فى مصر عنه فى البلاد التى كان يتم جلبهم منها ، بالاضافة الى طول الرحلة ومشاق السفر من جهة أخرى ، كذلك اعتاد كثير من حجاج بلاد التكرور هذه أن يجلبوا معهم أعدادا كبيرة من هؤلاء الرقيق والجوارى أثناء قدومهم فى مواسم الحج الى مصر وحتى أواخر العصر المملوكى « المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، قسم ٢ ، ص٨٨٢، (ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة ، ص ٧٢ - ٧٤) » .

كذلك كان يتم الحصول عليهن عن طريق المهاداة من ملوك البلدان أن التى لها علاقات مع سلطنة المماليك ، أو التى تسعى لعقد أواصر الصداقة معها ، مثال ذلك ما حدث سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م عندما قدم رسول عاهل المغول فى فارس وهو الخان بو سعيد الى السلطان الناصر محمد بن قلاون بسبب الخطبة والمصاهرة ، وبصحبته هدية فيها « جوار جنكيات » « المقريزى : السلوك ، قسم ٢ ، ص ٣٤٤ ، ابن أيبك : الدر الفاخر ، ص ٣٦١ ، نبيل عبد العزيز : الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٧٨ » .

وما تشير اليه المصادر المعاصرة من أنه فى سنة ٧١١ هـ أيام الناصر محمد بن قلاون فى سلطنته الثالثة ، من أنه حضر ملك النوبة الى الأبواب الشريفة ، وصحبته تقادم حفلة للسلطان، فيها ألف رأس رقيق من عبيد وجوار « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٤٤١ » . كذلك فى سنة ٧٦٢ هـ أيام الناصر حسن فى سلطنته الثانية ، قدم على السلطان قاصد من عند صاحب اليمن ، وصحبته هدية حافلة ، تشتمل على تحف جليلة ، وقماش فاخر ، وعبيد وجوار « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ قسم ١ ، ص ٥٧٢ » . الى جانب ما يشير اليه نفس المصدر فى سنة ٧٨٨ هـ أيام السلطان برقوق يذكر أنه فى شهر ذى الحجة « قدمت رسل ملك الحبشة ، بكتاب ملكهم الحطى ، واسمه داود بن سيف أرعد ، وحضر صحبة القاصد هدية حفلة للسلطان عدة جوار حبش ، وطواشية حبش ، وغير ذلك » « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٧٩» .

ولم تكن المهاداة من ملوك الدول المجاورة أو التى بينها وبين دولة سلاطين المماليك علاقات فقط ، بل كثيرا ما نسمع عن أحد نواب بلاد الشام يهدى السلطان الكثير من الجوارى الحسان

مثال ذلك ما حدث سنة ٧٩٩ هـ أيام السلطان برقوق في سلطنته الثانية ، أنه لما حضر نائب الشام تنم الحسنى بطلب من السلطان « فانه أرسل الى السلطان تقدمه حافلة ، من جملة ذلك ٠٠ عشرة جوار جراكسة ٠٠ » « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم٢، ص ٤٨٤ » ٠ كذلك جرت عادة نواب بلاد الشام أن يرسلوا الى السلطان فى القاهرة سنويا من جملة الهدايا فى مقابل تمتعهم بالاقطاعات الكبيرة عددا من الجوارى ، من ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث سنة ٧٥٤ هـ أيام الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد من أنه « أعفى الأمير أرغون من تسيير القود الذى جرت عادة نواب حلب بحمله الى السلطان من الخيل والجمال البخاتى والهجن والعراب ، ومن البغال والقماش والجوارى والمماليك ، ما قيمته خمسمائة ألف درهم » « السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٨٩٥ » ٠

ويبدو أن عملية اهداء الجوارى بين الملوك والسلاطين فى ذلك الوقت كانت من أهم سمات العصر ، فبالاضافة الى ما سبق وأشرنا اليه من هدايا ملوك الحبشة واليمن ، فسمع عن هدايا ملوك دهلك بالهند وكذلك صاحب فاس من ملوك المغرب الى سلاطين المماليك ، والتى حوت ضمن ما حوت أعدادا كثيرة من الجوارى ، حسبما تشير بذلك بعض المصادر المعاصرة «ابن الصيرفى: نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٧٧ ، ٤٧٣ » ٠ هذا الى جانب أن تزوج العبيد من الجوارى كان يعتبر مصدرا من مصادر الحصول على الجوارى ، وهن اللاتى أطلق عليهن اسم الجوارى المولدات ، أى اللاتى يجئن من نكاح العبيد بالجوارى فى نفس الدولة ٠ « الامام الشافعى : كتاب الأم ، جـ٤ ، ص ١٨٦ » ٠

ومن مصادر الجوارى أيضا حسبما تشير المصادر المعاصرة بعض نساء البدو المنتشرين فى طول البلاد وعرضها ، مثال ذلك

ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٨١٧ هـ فى حديثه عن الأمير فخر الدين بن أبى الفرج ، الذى أرسله السلطان الملك المؤيد شيخ للقضاء على فتن البدو فى الصعيد فعاد وقد جمع المال من الذهب وحلى النساء وغير ذلك من العبيد والاماء والحرائر اللاتى استرقهن ، ثم وهب منهن وباع باقيهن «النجوم ، ج ١٤ ، ص١٧» ويؤكد هذه الحقيقة المقريزى فى حديثه عن سنة ٨٢٠ هـ أيـام المؤيد شـيخ من أن الأمير فخر الدين أبى الفرج الأستادار الذى توجه الى الوجه القبلى بسبب فتنة العربان هناك ، وعندما رجع من حملته كان معه عدد كثير من الاماء والعبيد ، وتم استعراض الرقيق الذى أحضره « وفيه من بنات أهل الصعيد عدة قد استرقهن بعد الحرية ففرق من خيارهن طائفة على الأعيان ، وطئوهن ـعلى رغمهن ـ بملك اليمين • واختار لنفسه طائفة ، وباع باقيهن مع ما جلبه من العبيد • فشملت مضرته عامة أهل مصر ، من أعلى الصعيد الى أسفل مصر » « السلوك ، جـ ٤٤ ، قسم ١ ، ص ٣٩٦ » • كذلك يروى ابن اياس فى حوادث سنة ٨٩٢ هـ أيام السلطان الأشرف قايتباى من أنه جاءت الأخبار من عند الأمير آقبردى الدوادار ، بأنه انتصر على العرب الأحامدة فى الوجه القبلى ، فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسر نساءهم وأولادهم ، وبعث بهم الى القاهرة ، فباعوهم كمـا يباع الرقيق من الزنج « بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٣ ص ٢٤٠ » •

ويفسر لنا السبكى هـــذا التصرف من قبـل السـلطات المملوكية والذى يبدو غريبا بعض الشىء ، وذلك فى حديثه عـن مجتمعات البدو فى ذلك العصر ، من أنهم كانوا يعاشرون النساء دون زواج شرعى ، ولا يورثون البنات وهذا ما لم يأت به شرع أو دين • وربما أدرك سلاطين وأمراء المماليك هذه الحقيقة ، لهذا لم ينظروا الى نساء البدو اللاتى يقعن فى أسرهن أكثر من كونهن

جوارى • فهو يقول : « وكثير من العرب لا يتزوجون المرأة بعقد شرعى ، وانما يأخذونها باليد وربما كانت فى عصمة واحد فنزل عليها أمير غيره ، واستأذن أباها ، وأخذها من زوجها • فهيهات قل لى : أى ولد حلال ينتج من هذه ؟ لا جرم أنهم لا يلدون الا فاجرا، ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ، ولا يمنعون الزنى فى الجوارى بل جواريهم يتظاهرن بالزنى مع عبيدهم ، وكل ذلك من الموبقات العظيمة » « السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٥٥ » • وهو بهذه العبارة يفسر لنا ما يطلق عليه زواج الشغار ، وهو أن يتبادل الرجلان كل منهما ابنة الآخر أو أخته أو موليته بدون مهر ، وكانت هذه عادة العرب قبل الاسلام « أحمد خيرت : مركز المـــرأة فى الاسلام ، ص ١٣ » ، ومن الواضح من كلام السبكى أنها استمرت فيهم حتى عصر سلاطين المماليك •

أما عن أسعار الجوارى ، فمن الواضح أن هناك عدة عوامل تحكمت فى سعر كل جارية من هذه الجوارى ، منها حالة العرض والطلب كأى سلعة من السلع التى يتم عرضها فى أى سوق مـــن الأسواق ، ودليلنا على هذا ما كان يحدث من انخفاض فى أسعارهن فى أعقاب احدى الغزوات الناجحة التى كان يشنها الجيش المملوكى اما على الصليبيين ببلاد الشام طوال اقامتهم بها أى حتى سنة ١٢٩١ م ، أو على بلاد النوبة المسيحية آنذاك ، أو على بلاد الأرمن، أو قبرص أو رودس باعتبارهما من المعاقل الصليبية وكما سبقت الاشارة بذلك • مثال ذلك ما يذكره المقريزى فى حوادث ســـنة ٦٨٧ هـ أيام السلطان المنصور قلاون من أنه فى تاسع رجب وصل الأمير علم الدين سنجر المسرورى من بلاد النوبة ، ببقية العسكر الذى بقى بدمقلة مع الأمير عز الدين أيدمر ، ووصـــل معه ملوك النوبة ونساؤهم وتيجانهم وعدة أسرى كثيرة ، فكان يوما مشهودا وفرق السلطان الأسرى على الأمراء وغيرهم ، فتهاداهم الناس ،

وبيعوا بالثمن اليسير لكثرتهم « الســـلوك ، ج ١ ، قسم ٣ ، ص ٤٧٣ » ٠

كذلك كان نوع الجارية والغرض الذى سوف تستخدم فيه كان له أثره فى سعر الجارية ، فابن تغرى بردى فى حديثه عن احدى الجوارى المغانى فى ذلك العصر يذكر أنه فى سنة ٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م عندما توفى الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصرى فقد اشترى الأمير بكتمر الساقى جاريته وتدعى « خوسى » بستة آلاف دينار « المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ » ٠ ومما لا شك فيه أنه مبلغ كبير جدا بمقاييس ذلك العصر ، وحتى لو كان هذا المبلغ قد بالغ فيه المؤرخ ، فانه يدل على مدى ارتفاع أســـعار الجوارى المغانى بوجه خاص ٠ ويتضح ذلك اذا عرفنا أن الجارية « اتفاق » وكانت من الجوارى المغانى ، وهى جارية حبشية حالكة السواد ، وهى حظية السلطان الصالح اسماعيل ٠ قد اشترتهـا ضامنة المغانى بالقاهرة من ضامنة المغانى بمدينة بلبيس بمبلغ دون الأربعمائة درهم ، لما رأت فيها من استعداد صوتى يؤهلهـا للغناء ، وعلمتها الضرب بالعود ٠ « المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧١٥ » ٠

كما تشير بعض المصادر المعاصرة الى جارية من هذا النوع تسمى طغاى وهى جارية تركية اشتراها الأمير تنكز نائب الشام من دمشق بتسعين ألف درهم ثم بعثها للسلطان الناصر محمـد ابن قلاون فأعتقها وتزوجها بعد ذلك « المقريزى : السلوك ، ج٢، قسم ١ ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ » ٠كذلك وردت اشارة فى سنة ٧٣٨هـ من أنه تم بيع احدى عشرة جارية ما بين ثمانية آلاف درهم الجارية الى أربعة آلاف ٠٠ « المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٤٢ » ٠ لكن من المرجح أن أسعار أمثال هؤلاء الجوارى المغانى كانت ترتفع بشكل كبير جدا خاصة اذا أخذن الغناء عن مشاهير

الفنانين ، لذلك حرصت الجوارى من هذا النوع كل الحرص على أن تكون اجازتهن ممن ذاع اسمه ، واتفق الناس على تقديمه وتفضيله وترديد أصواته ، وهو رأى له وجاهته « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ٧٣ » ٠

وفى وثيقة مكتوبة باللغة العربية فى دار الوثائق البندقية جاء فيها أن قنصل البندقية بالاسكندرية اشترى من يوحنا الكاهن القبطى ، اشترى منه جاريته النوبية المسيحية مباركة المرأة بمبلغ ٢٧ دوكة وزنا ، يحسب منها ١٣ر٥ دوكة تكاليف السفر ومصاريف المعيشة ٠ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد اشترط المشترى على البائع فى العقد نفسه أن يتكبد الأخير ـ أى البائع ـ دفع ضريبة الرقيق الرسمية المفروضة على النوبية المباعة ٠ تحرر هذا العقد فى ٢٢ من صفر سنة ٢٠/٨٢٢ من مارس ١٤١٩ » صبحى لبيب : « الفندق ظاهرة سياسية » من كتاب مصر وعالم البحر المتوسط ، ص ٢٩٨ » ٠

وفى رأينا أن هذه الجارية النوبية كانت من الجوارى اللاتى استخدمن للخدمة المنزلية وليست من الجوارى المغانى أو الجوارى السميرات اللاتى سنتحدث عنهن بعد قليل ، فضلا عن أن هذا المبلغ يعادل تقريبا أسعار بعض الحوارى من جوارى الخدمة المنزلية التى وردت اشارة اليهن فى وثائق الجينزا المعاصرة لتلك الفترة ٠ حيث نسمع عن سعر احدى الجوارى « وهى دادة سودانية » أنه كان حوالى ٣٠ دينارا من الذهب المصرى ، بينما نسمع عن جارية نوبية تدعى « مسرة » بيعت بمبلغ ٢٠ دينارا كذلك نسمع عن جارية حبشية تم بيعها فى سنة ١٢٨٠ م بمبلغ ٢٢٦ر٥ درهم فضيا ، أى ما يعادل فى ذلك الوقت حوالى ٢٠ دينارا من الذهب ٠ ولعل أكبر مبلغ ذكرته تلك الوثائق عن جارية من أصل أوربى كان ٤٠ر٥ دينار ويأتى بعده ٨٠ دينارا كأكبر رقم وصل اليه سعر ذلك النوع

من الجوارى • ومما لا شك فيه أن جوارى الخدمة المنزلية كن يختلفن في أسعارهن أيضا بسبب مهارتهن فى أداء بعض الأعمال المنزلية وبخاصة اجادة عملية الطهى وربما كان هذا السبب وحده كافيا لارتفاع أسعار بعضهن بشكل ملحوظ عن بقية هذه المجموعة من الجوارى ، والدليل على هذا هذه العبارة التى وردت عند المقريزى في حديثه عن سنة ٧٦٢ هـ أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون عن الوزير الصاحب فخر الدين ماجد بن خصيب من قوله « وأخبرنى الوزير الصاحب تقى الدين عبد الوهاب بن الوزير فخر الدين ماجد ابن أبى شاكر أنه كان فى دارهم من جوارى ابن خصيب جاريتين ، تحسن كل واحدة منهما ثمانين لونا من التقالى سوى بقية ألوان الطعام •• « السلوك ، جـ ٣ ، قسم ١ ، ص ٥٩ » • كما يبدو لنا فيما ذكرت هذه الوثائق أن الجوارى المولدات واللاتى تخصصن فى الخدمة المنزلية لم يكن مفضلات على غيرهن ، بدليل أن احداهن وقد ولدت فى بيت أحد الأطباء اليهود ، وكانت تدعى « فيروز » فعندما باعها كان سعرها ١٢ دينارا ، كما نسمع عن جارية من هذا النوع كانت خادمة فى أحد المنازل وتدعى « سعاده » بيعت مع ابنها بمبلغ ٤٠ دينارا • كذلك يتضح لنا من خلال استعراض أجناس هؤلاء الجوارى ، من تركية وهندية ، وحبشية ، وفارسية ورومية ، أن الجنس كان له أثر فى أسعارهن ، بدليل ان احدى الجوارى من هذه الفئة وهى رومية الأصل ؛ وصل ثمنها الى ٨٠ دينارا ، بينما نسمع عن جارية فارسية الأصل وتدعى « عطر » بيعت بمبلغ ٥ر١٠ دينار ؛ بينما بيعت جارية فارسية أخرى بمبلغ ١٣ دينارا ، وربما امتازت الأخيرة على الأولى وهى من نفس جنسها بميزة معينة • بينما ذكرنا أن الجارية السودانية وصل سعرها الى ٣٠ دينارا ، والجنسية ٢٠ دينارا •

كذلك يبدو أن أسعار الجوارى ارتبطت الى جانب ما سبق

ذكره بسن كل واحدة منهن حيث وردت عدة اشارات عن أسعار جوارى صغيرات فى السن بيعت بمبالغ تتراوح ما بين ١٥ و ٢٥ دينارا ، بيتما هناك ثلاث حالات احداهن تدعى « ملكة العشاق » تم بيعهن على النحو التالى ١٤٫٥ دينار ، ١٣ دينارا ، ١٢ دينارا ٠ « عن أسعار الجوارى المختلفة راجع :

"Goitein : Op. Cit. Vol. I, pp. 138-140.

وفى كثير من حالات بيع الجوارى كان ينص على سعر الجارية، وان تلك الجارية ملك لفلان وأنها عاشت لديه فترة كذا من الوقت ، كذلك يلاحظ أن عقود بيع الجوارى هذه كان يتم فيها النص على أن البيع تم نقدا أو فورا ، وأنه من النادر أن نجد أن البيع كان يتم بالأجل ، وفى هذه الحالة الأخيرة كان يتم النص فيه على أن يدفع المشترى مبلغا محددا كل شهر للبائع ، وفى جميع حـالات البيع والشراء التى كان يتم التنازع عليها سواء لدى المسلمين أم غيرهم من أبناء الذمة كان يتم الفصل فيها أمام قاض مسلم ووفق الشريعة الاسلامية ٠ « عن ذلك راجع :

"Giotein : Op. Cit., Vol. I, pp. 140-141.

الجـوارى والحياة العائلية :

من المرجح أنه كان لنظام الحكم الخاص بدولة سلاطين المماليك والقائم على الرق أساسا ، فضلا عن الظروف الاقتصـــادية التى تهيأت لمصر فى ذلك العصر أثر واضح فى كثرة أعداد الجوارى فى المجتمع المصرى بوجه عام ، وفى مجتمع القاهرة بصفتها عاصمـــة دولة سلاطين المماليك بوجه خاص ٠ وبشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البلاد طوال العصر الاسلامى ٠ والدليل على ذلك ما نلحظه من شغف الناس من حكام ومحكومين باقتناء الجـوارى وبخاصـــة الحسان ، ودفع الأمـوال الطائلة فى شرائهن كل بحسب مقدرته

وامكاناته ، حيث نسمع في المصادر المعاصرة على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان الظاهر بيبرس قد وصل عدد جواريه الى مائتي جارية « ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٣٧ » . بينما بلغ عدد جوارى السلطان الناصر محمد بن قلاون أكثر من ألف ومائتي جارية ، وعن اهتمامه ببناء الدور في قصوره لسكنى هؤلاء الجوارى ، فقد بني القاعات السبع التي تشرف على ميدان القلعة وباب القرافة من أجل سكنى جواريه « المقريزى : السلوك ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢١٠ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٢ » .

وحاكى الأمراء والأهالى سلاطين المماليك في الاكثار من الجوارى ، كل حسب قدرته وحسب أحوال البلاد الاقتصادية ، حيث نلاحظ ضخامة أعداد الجوارى فى عصر سلاطين المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى أى حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى تقريبا ، بينما نلاحظ أنه منذ القرن الخامس عشر أى في دولة المماليك الجراكسة قلة تلك الأعداد ، بسبب الأزمات الاقتصادية التى أخذت تعانى منها البلاد ، ويتضح لنا هذا على سبيل المثال عن أن السلطان الأشرف برسباى في سنة ٨٤١ هـ كان لديه أقل من مائتى جارية « المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٠٤٣ » .

وعن علاقة السيد بجواريه فهى علاقة مختلفة تماما عند المسلمين عنها لدى أبناء الغرب الأوربى المسيحى ، فالجارية وكذلك العبد كان يعتبر كل واحد منهما كفرد من أفراد العائلة التى هو فيها ، فهى أو هو أقرب الى مولاه من الخادم عند أهل أوربا ، ولعل هذا يفسر لنا المثل الشائع آنذاك وحتى أيامنا هذه أن احترام العبد من احترام سيده . « ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، قسم ١ ،

ص ١ ، ٣٥١ » . ويؤكد ذلك ما جاء في الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « اتقوا الله في الضعيفين المملوك والمرأة » وفي الأثر الكريم « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » ، وقول الامام الغزالي : كان آخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون وأكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فامسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم » « احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ ، أحمد شفيق : الرق في الاسلام ، ص ٦٨ – ٧١ » .

ومن الملاحظ أن الجواري عشن في قصور السلاطين ودور الأمراء وعلية القوم وغيرهم ممن مكنتهم ظروفهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية جزءا أساسيا من الحريم ، بل وكأنهم ضمن أفراد عائلة أسيادهن ، يشاركن في شتى المناسبات الخاصة بعائلة السيد من أفراح وأحزان وخلافه ، مثال ذلك ما يرويه لنا المقريزي – في ذكره لحوادث سنة ٧٤٢ هـ من أنه عندما قدم الأمير « ملكتمر الحجازي » من سجنه في الاسكندرية ، فان خوند الحجازية زوجته تلقته بجواريها وخدامها ، ومغانيها تضرب بالدفوف والشبابات فرحا به ، بينما أختها وهي جارتها زوجة الأمير « قوصون » كانت في عويل وبكاء وصياح هي وجواريها وخدامها لأن زوجها قبض عليه وأرسل ليسجن بالاسكندرية . « السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٥٩٥ » .
وأنه عندما تم القبض على بعض الأمراء الذين شاركوا في قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاون ، ومروا بهم على أبواب دورهم ، فلما جازوا على دار علاء الدين الطنبغا خرجت جواريه حاسرات يلطمن ، ومعهن أولاده وغلمانه قد شقوا الثياب وعظم صياحهم ،

وكانت زوجته بأعلى الدار ، فألقت نفسها لتقع عليه فأمسكنهـا جواريها ·· هذا وجوارى الملك الأشرف خليل قد لبسن الحـداد وتذرعن بالسخام ، وطفن فى الشوارع بالنواحات يقمن المآتم .فلم ير بمصر أشنع من تلك الأيام « السـلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٧٩٦ » ·

كما أنه قد طبق عليهن من قواعد العزلة والحجاب ما يطبـق بالضبط على باقى النساء من الأحرار اللاتى فى الحريم ، والفئـة الوحيدة التى أبيح لها غشيان الحريم هى فئة الطواشية أو الخصيان بحكم ما لهم من وضع اجتماعى « سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٤ » · وكثيرا ما تطالعنا المصادر المعاصرة من أن أحد السلاطين تزوج احدى جواريه ، فارتفعت بذلك الى منزلة خوند الكبرى فى القصر السلطانى ، أى الزوجة الأثيرة لدى السلطان وذات الجـاه والمكانة الكبرى ؛ مثال ذلك ما يذكره المقريزى عن « طغاى » زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون وأم ابنه الأمير أنوك كانت معه من جملة جواريه فاعتقها وتزوجها ، وكانت بديعة الحسن باهرة الجمال ، رأت من السعادة ما لم يره غيرها من نساء الملوك الترك بمصر ، وتنعمت فى ملاذ ما وصل سواها لمثلها ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها ، ماتت فى شوال سنة تسـع وأربعـين وسبعمائة عن ألف جارية وثمانين خادما خصيا وأموال كثيرة جدا « الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ » · وما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٨٧٠ هـ أيام السلطان الظاهر خشقدم . من أنه فى يوم السبت ثامن جمادى الآخرة عقد السلطان عقده عـلى جاريته سورباى الجركسية أم ابنته ، وجعلها خوند الكبرى صاحبة القاعة ، وذلك بعد موت زوجته خوند شكرباى الأحمدية ـ نسبة الى الطريقة الأحمدية الصوفية ـ وكان العاقد القاضى الحنفى محب الدين ابن الشحنة · « ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٦ ص ٢٩٢ » ·

وتجدر الاشارة أنه جرت العادة أنه لا يرى الرجل من يريد الزواج بها رؤية تامة اذا كانت من الحرائر الا في حدود ما يسمح به الشرع الاسلامي لمريد الخطبة ، بخلاف الأمة « الجارية » فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها له قبل أن يقدم على الاقتران بها • كما يذكر الامام الشافعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى من صرن اليه أن يطأ حائلا حتى تحيض أو حاملا حتى تضع « الامام الشافعي : كتاب الأم ، جـ ٤ ، ص ١٨٤ »•

وعندما يتزوج السيد من جاريته جرت العادة وفقـــا للشرع الاسلامي أن يعاملها معاملة النساء الأحرار من حيث تخصيص صداق لها ، بل نسمع في المصادر المعاصرة عن المغالاة في صداق كثير من الجواري ، فقد ذكر المقريزي في حديثه عن الملك المنصور أبي بكر ابن الناصر محمد بن قلاون أنه في سنة ٧٤٢ هـ تزوج من جاريتين من جواريه اللاتي بالقصر السلطاني بالقلعة ، وخصص لكل واحدة منهما صداقا قدره مائة ألف دينار ، غير ما غرمه على الاحتفال الذي أقيم بهذه المناسبة من أموال طائلة • بل أن والده السلطان الناصر محمد بن قلاون أمر أن تجهز جواريه كل واحدة بنحو ذلك المبلغ عندما يتم لها الزواج « المقريزي : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٥٦٦ ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٦ » • ولعل دافعه الى هذا كان احساسه بالمسئولية نحو جواريه كأفراد من أسرته ، يجب عليه أن يتكفل بهن مثلما يتكفل ببناته • ولم يكن هذا التصرف قاصرا على السلاطين والأمراء وحدهم ، بل انه كان سمة العصر ، وشاركهم فيه عامة أهل مصر والقاهرة ، وخير ما يعبر عن ذلك قول المقريزي في حديثه عن حمام الرومي أحد حمامات القاهرة الشهيرة آنذاك « وفي هذا الحمام حصة أيضا وقفها شيخنا برهان الدين ابراهيم الشامي الضرير على أمته ــ أي جاريته ــ وهي بيدها « الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ ، طبع دار التحرير للطبع والنشر » •

ولا غرابة فى هذا فان الانسان لا يكاد يجد عند المسلمين ذلك الحد الفاصل الذى يجعل بين السيد وعبيده وجواريه بونا عظيما وفرقا جسيما ، فليس الاسترقاق موجبا لشىء من الهوان والصغار كما أن الرقيق ليسوا من الذين سقطوا عن درجة الاعتبار وحل بهم العار ، بل وجبت معاملتهم بالرفق ، وان المتأمل فى الأحاديث النبوية الشريفة يراها مشوبة بالعطف والحنان ، فانظر الى ما رواه الامام على كرم الله وجهه عن الرسول صلى الله عليه وسلم « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » وعن أم سلمة قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى الصلاة وفيما ملكت أيمانكم » . « أحمد شفيق بك : الرق فى الاسلام ، ص ٦٧ ـ ٧٣) .

كما جعلت الشريعة الاسلامية للسيد تمام الحرية فى تزويج جواريه الى من يشاء من العبيد أو الأحرار ، كما أنها لم تجعل له حقا فى التفريق بين الأرقاء بعد تزويجهم ، ولكنه لا يجوز له أن يصرح لعبده وأمته أن يعيشا معا بغير زواج كما يجوز له أن يفترش جواريه ما عدا الأختين والأم وبنتها والخالة وبنتها والعمة وبنتها وغيرهن من ذوى الرحم المحرم . (أحمد شفيق : نفس المرجع ، ص ٨٣ ـ ٨٥) . ومن منطلق هذه المسئولية التى تقع على السيد نحو جواريه يبدو لنا أن سلاطين المماليك كانوا بين الحين والحين يعمدون الى اختيار الزوج المناسب من كبار أمرائهم لبعض جواريهم، مثال ذلك ما يذكره لنا ابن الصيرفى عن المؤيد شيخ سنة ٨٢١ هـ من أنه فى الثالث من محرم زوج السلطان الأمير فخر الدين الاستادار ببعض أمهات أولاده ، بعد أن أعتقها ، وصنع لها مهما « عرسا » عظيما الى الغاية والنهاية « نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٤٩ » .

هذا الى جانب ما تشير اليه بعض وثائق الوقف فى ذلك العصر من حرص السلاطين وكبار الأمراء على توفير مورد ثابت للرزق

لجواريهم عقب وفاتهم ، مثلهن في هذا مثل ذرية هؤلاء السلاطين والأمراء وعلية القوم . « عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة وقف مسرور ابن عبد الله الشبلي الجمدار ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ » . وما ورد من وثيقة أخرى من وثائق الجينيزا توصى فيها احدى السيدات وهي على فراش الموت زوجها بجاريتها قائلة له : « ان جاريتي قامت برعايتي في مرضى هذا ومرضى السابق كما لو كانت أكثر من أمي أو أختي ، والآن أرجوك ألا تبيعها أو أن يشتريها أحد وألا تهان بأي شكل من الأشكال »

"Goitein : AMedit. Society. Vol. I, p. 144".

وفي حالة زواج الجارية من أحد عبيد السيد فقد كان يشترط عند كتابة عقد زواجها على يد عاقد الانكحة « المأذون » أن ينص على : هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان المقرة لسيدها بالرق والعبودية ، عندما خشي على نفسه العنت ـ أي الفجور والزنا ـ وخاف الوقوع في المحظور لعدم الطول ، وأنه ليس في عصمته زوجة ، ولا يقدر على زواج حرة على ما شهد لديه من يعينه في رسم شهادته ، صداقا تزوجها به ، مبلغه كذا وكذا وولى تزويجها اياه ، بذلك سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعا « النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ، ص ١٢٢ » . كما جاز أن يتولى السيد بنفسه كتابة ذلك العقد وفي هذه الحالة كانت صيغة العقد على النحو التالي : هذا كتاب تزويج اكتتبه فلان لعبده فلان من آمته فلانة ، المقر له كل منهما بالرق والعبودية ، وهو أنه أشهد على نفسه أنه زوج عبده المذكور لأمته المذكورة تزويجا صحيحا شرعيا بسؤال كل منهما لسيده المذكور في ذلك ، وقبل الزوج من سيده عقد هذا النكاح لنفسه قبولا شرعيا ، ولا يعين الصداق . « النويرى : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ١٢١ ، ١٢٤ » .

كذلك كانت العناية بالرقيق بوجه عام والجوارى بوجه خاص بالغة وكما سبقت الاشارة بذلك ، حيث أجمع الفقهاء على أنه يجوز للسيد تأديب جواريه حتى ولو كان ذلك بالضرب ، ولكنه لايجوز له على كل حال أن يجاوز فى ضربه عشرة أســواط ، كما حث الشرع الشريف على تعميم التربية والتعليم ونشر أنوارهما وفوائدهما حتى على الجوارى والعبيد عملا بقول رسول الله صلى الله عليــه وسلم « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وتزوجها كان له أجران » فى الحياة الأخرى أجر بالنكاح والتعليم وأجر بالعتق . « أحمد شفيق : نفس المرجع ، ص ٧٣ ـ ٧٦ » ، ولعل هذا ما دفع بكثير من السلاطين والأمراء والمماليك وغيرهم من علية القــوم من التزوج بالجوارى ، ولا نستبعد مطلقا أن تحظى الجوارى بقسط من التعليم على أيدى كثير من الفقهاء الذين توافدوا على قصور السلاطين والأمراء وغيرهم لتعليم جواريهم وتعليم أبنائهم وبناتهم .

وأمام تلك الرعاية التى حظيت بها الجوارى فى بيوت سادتهن كان لابد من ايقاع أقسى أنواع العقاب على من تتنكر للجميل ، أو تسول لها نفسها خيانة أهل الدار التى تعيش وسطهم ، مثال ذلك ما يرويه لنا المقريزى فى حوادث سنة ٧٥٠ هـ أمام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون من أنه فى يوم الأربعاء ثانى عشر شهر ربيع الأول « شنقت جارية رومية الجنس خارج باب النصر . عند مصلى الأموات . وسبب ذلك أنها كانت جارية أم الأمير بلبغا البجاوى ، فاتفقت مع عدة من الجوارى على قتل سيدتها ، وقتلوها ليلا بأن وضعن على وجهها مخدة ، وحبسن نفسها حتى ماتت ، وأقمن من الغد عزاءها ، وزعمن أنها ضربت بدم . فمشت حيلتهن على الناس أياما ، الى أن تنافسن على قسمة المال الذى سرقته ، وتحدثن بما كان ، واعترفن على الجارية التى تولت القتل ، فأخذت وشنقت ، وهى بازارها ونقابها . وأخذ من الجوارى ما معهن من

المال ، وكان جملة كثيرة · ولم يعهد بمصر امرأة شنقت سوى هذه « المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٩٩ » ·

ومن الطبيعي أن يكون لهؤلاء الجواري أثرهن الواضح في الحياة العائلية ومكانة المرأة في المجتمع في العصر المملوكي · فمهما كان تقدير الرجل للمرأة في ذلك العصر فان هذا التقدير لم يصل الى الدرجة التي أصبح عليها الآن في عصرنا الحالي · والسبب في هذا راجع الى نظرة المعاصرين آنذاك الى المرأة على أساس أنهـــا خلقت للمتعة الجنسية ليس الا ، وانعكست هذه النظرة بوضوح في شغف الناس باقتناء الجوارى الحسان ودفع الأموال الطائلة في شرائهن « سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٢ » · ولا نشك في أنه حدث نوع من الفتور على الأقل في العلاقة بين الرجل والمرأة في ذلك العصر ، اما بسبب ما كان يخصصه السيد لجواريه من أموال وعقارات أو ما نلنه من حظوة لديه « محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٩٤ » · وليس أدل على هـــذا مما يذكره لنا ابن اياس في حوادث سنة ٨٧٦ هـ في عهد السلطان الأشرف قايتباى من أنه في شهر « ربيع الأول نودى من قبـــل السلطان بان أحدا لا يشكو أحدا للسلطان ، الا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فاذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان ، وكان قد كثرت شـــكاوى الناس بين يدى السلطان ، حتى ان امرأة شكت زوجها للسلطان ، لأجل أنه وطىء جارية في ملـــكه ، فما طاقت زوجته الغيرة ، فشكته للسلطان بقصة » « بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٦٣ » · وعن أثر الجوارى في العلاقات الزوجية يقول الرحالة ببرو طافور الذى زار مصر في القرن الخامس عشر : ويؤثر المسلم الزواج من مسيحية ــ يقصد بذلك الجوارى ــ دون مهـــر على الاقتران بمسلمة مهما كانت ضخامة مهرهـــا ، لا سيما اذا كانت مسلمة حرة · وفي حديثه عن كبير مترجمي السلطان المملوكي وعو

الأمير « صايم » ، يقول : وتحت هذا المترجم أربع زوجات مسيحيات ممن يبعن في البحر الأسود ، أي أن كبار رجال الدولة كانوا يفضلون الزواج من الجواري « حسن حبشي : رحلة طافور ، ص ٦٥ ـ ٦٧ » . أضف الى ذلك ما يذكره أستاذنا الدكتور سعيد عاشـــور عن أن الرحالة سانوتو Sanuto الذى زار مصر فى ذلك العصر ، قد لاحظ أن بعض النساء يتغيبن عن منازلهن فى أوقـــات كثيرة من النهار ، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن ، وربما كان السبب فى ذلك قيام الجوارى بكل الأعباء المنزلية الى جانب تلبية حاجات الزوج . « المجتمع المصرى ، ص ١٣٩ » .

كما يعكس لنا أدب ذلك العصر بعضا من الجوانب التى تدل على مدى ذلك الفتور فى العلاقات فى بعض الأحيان ، حيث يتضح لنا من أشعار الشعراء المعاصرين أن صورة المرأة المحبوبة كمثـــال للمرأة الحرة والتى شاع ذكرها في التراث الأدبى ، قد تغيرت الى صورة الجارية الحسناء التى تتقن فن الحب ، بحيث نقف فى هذا الأدب على كثير من أمثال هذه الصورة التى يرد فى ثناياها أسماء كثير من الجوارى التى شاعت آنذاك مثل « وردة » و « حدق » و « حكم الهوى » و « نسيم » و « اشتياق » و « هيفاء » وغيرها . وطبيعى بعد ذلك أن نسمع عن ضيق بعض الرجـــال بزوجاتهم فالبوصيرى فى وصفه لزوجته يذكر بأنه قد ضاق بهذه الزوجة المشاكسة ، كما أن ابن دانيال يضيق هو الآخر بزوجته الدميمة النكدة ويصفها بقوله :

زوجة فى النقار ديك ولكن لها فى النساء صورة قرد

« فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ » . كما يرى فيها الشاعر القيراطى د ت ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م « انها جبلت على النكران ، لا تركن الى خليل ، وهى فى السخط هلاك مسلط على الزوج ، وفى الرضى فم مفتوح لا يشبع . واذا كانت هذه هى

الصورة للمرأة الحرة كما عرضها أدب ذلك العصر ، وهي صورة كما ترى بالغة السوء . لكن مما لا ريب فيه أن هذه الصورة الساخرة قد استمدها الشعراء من واقع مجتمعهم ، ثم أضفوا عليها من روحهم الفكهة ما جعل لها هذه الحيوية . لذا فاننا نرجح أن الباعث عليها مالاقاه أمثال هؤلاء الشعراء من الجوارى من بشاشة وحفاوة ، وتفنن فى اظهار الود الى جانب ما تمتعن به من حسن . « المرجع السابق ، ص ٣٠٤ » . وكما ضاق بعض الرجال بزوجاتهم ، فاننا نسمع فى المصادر المعاصرة عن أن كثيرا من الرجال قد أتلفوا أموالهم على حظاياهم من الجوارى ، بما سبب ضيق زوجاتهم من سوء تصرفهم هذا « ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٤٣١ » .

ولعل مما ساعد أيضا على ذلك الفتور فى العلاقة الزوجية ما شاع فى ذلك العصر ، من أنه غالبا ما كان السيد يتزوج من جاريته الى جانب زوجته الحرة ، وأنه تحتم عليه فى هذه الحالة أن يعتقها قبل العقد عليها . كما أنه كثيرا ما نسمع فى ذلك العصر أن شخصا اشترى جارية لخدمته فتحقد الجارية على سيدتها وتتملكها الغيرة وتعمد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدها . « المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٧٢ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٣ » . وقد تعددت مثل هذه الحالة بشكل ملحوظ حتى أواخر العصر المملوكى . وفى حالات أخرى نسمع عن احدى الجوارى أنها كانت تحقد على سيدتها فعمدت الى الانتقام منها فى صورة ابنها الصغير مثال ذلك ما يرويه ابن اياس فى حوادث سنة ٨٣٨ هـ أيام السلطان الأشرف برسباى ، من أنه فى شهر صفر من هذه السنة « جرت حادثة غريبة وهى أن جارية رمت ابن ستها من الطاق الى الخليج الناصرى، فغرق ومات ، وكان سنه نحوا من ست سنين ، فعرضت الجارية على السلطان ، فدفعها الى قاضى قضاة المالكية ، فحكم بتغريقها

في الخليج في المكان الذى رميت فيه ذلك الصبى الصغير ، فكان لها يوم مشهود لما غرقت في الخليج » « بدائع الزهـــور ، ج ٢ . ص ١٦٠ » .

ولم تكن غيرة الجوارى قاصرة على سيداتهن من الأحرار ، بل تطالعنا المصادر المعاصرة من أن هذه الغيرة كثيرا ما كانت تقع بين الجوارى وبعضهن البعض ، وخصوصا لدى السلاطين والأمراء ، وذلك بسبب حظوة احداهن لدى السلطان أو الأمير وتزوجه منها ، مما يوغر صدر باقى الجوارى عليها فتتحايل احداهن لدس السم لهـا لعلهن بذلك ينفردن بما يخلفه بعد وفاته من ثروة طائلة . مثـال ذلك ، ما رواه ابن الصيرفى في حوادث سنة ٨٠٢ هـ في حديثه عن زوجة السلطان الملك الظاهر برقوق ووالدة السلطان الملـك الناصر فرج بن برقوق حيث قيل انها « سحرت » أى وضع لها السم ، واتهمت جارية من جواريها بذلك ، فضربت ضربا شديدا ، فأقرت على رجل نصرانى يعمل كاتبا بديوان السلطان بالقلعة ، فأتوا به وعوقب بضربه ضربا شديدا ، فلم يقر بشىء ، ومـــات بسجن القلعة وماتت الجارية أيضا « ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، قسم ٢ ، ص ٥٢٥ » .

كذلك يبدو لنا أن نظرة المعاصرين للمرأة والتى قامت على أساس أنها خلقت للمتعة والاستغلال ليس الا « سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٢ » ربما قد ازدادت رسوخا بسبب كثرة هؤلاء الجوارى وما قدمته من متعة جسدية بما يؤكد هذه النظرة ، لذا لا غرابة أن نسمع أن هناك من كان يكره انجاب البنات ، واذا بشر باحداهن ظل وجهه مسودا ، وهذا ما يعكسه لنا « الوراق » كأحد شعراء ذلك العصر فى قوله :

رزقت بنتـــا ليتها لم تكن   في ليلة كالدهر قضيتهـــا
فقيل : ما سميتها قلت لو   مكنت منها كنت سممتهـــا

« فوزى محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٩٨ » . وكذلك نرى « ابن الوردى » يكره انجاب البنات خشية من المفاسد التى عمت فقال فى احدى قصائده يعبر عن ذلك :

يارب أشكو من بناتى كثـــرة   وأبو البنات يخاف ثوب العار
والله يرزقنى بهـن وانمـــا   أرجو لهن الستر من ستـــار

ثم يدعو على بناته بالموات وفى اعتقاده أن جوار الله تعالى خير من جواره ، فيقول :

فرزقن عن قرب جميل جوار من   شتان بين جـواره وجـــوارى
أترى أسر بدفن بنت قائـــلا   الله جـارك ان دمعى جـــارى

ولكن ليس معنى هذا اطلاقا أن الآباء كرهوا بناتهم ، بدليل ما يطالعنا به كثير من المصادر المعاصرة من أسماء البنات التى تعبر عن محبة الآباء لهن مثل : « ست المـــلوك » و « ست الكل » و « ست أبوها » و « ست الناس » وغيرها من الأسماء ؛ وبخاصة أسماء بنات الرسول صلى الله عليه وسلم وذريته ، وكذلك أسماء بعض الأشخاص المقدسة عند المسيحيين واليهود ، ولكن قصدنا اظهار أن كراهة انجاب البنات ــ وان كانت عادة متأصلة فى الشعـــوب الشرقية بوجه عام ــ ربما كانت تصدر عن النظرية العامة للمرأة فى المجتمع ، وكما صورها لنا بعض هؤلاء الشعراء فى قصائدهم .
« فوزى محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٢٩٨ » .

أما فيما يختص بنظرة المجتمع الى أبناء السيد من جواريـه وأبنائه من زوجاته الأحرار ، فلا ندرى هل حدث فى عصر سلاطين المماليك ما كان شائعا من قبل من الحط من أقدار أبناء الجوارى ،

والنصح بالابتعاد عنهم ، وهل نظر البعض الى هؤلاء الهجناء نظرة احتقار وامتهان أم لا ؟؟ وهل انتقلت هذه الكراهيـــة الى الآبـاء أنفسهم ، فكانوا مثلا يفضلون اولادهم من الحرائر على الذين أنجبتهم الجوارى ؟ « جبور عبد النور : الجوارى ، سلسلة اقرأ ، ص ٧٦ ، ٧٧ » • وهل حدث هذا بين سائر الطبقات باستثناء طبقه المماليك التى قامت فى أساسها على الرق ، لذا لم تقم وزنا لكل هـــذه الاعتبارات ، بدليل ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٨٢١ هـ أيام السلطان المؤيد شيخ المحمودى من أنه فى يوم الخميس حادى عشر شهر جمادى الأولى « ولد للسلطان ولد ذكر ، سماه موسى ، عن أمة يقال لها طولوباى فدقت البشائر ، وكتب الى الأقطار بذلك فتوجه الطواشى مرجان الهندى الى الشام للبشارة بولادته ، وزينت القاهرة ومصر » « السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٤٤٤ » • وما حدث سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٧٠ م عندما ماتت للسلطان خشقدم ابنة عمرها ست سنين ، من سريته خوند سورباى ، فتأسف عليها السلطان ، حتى انه أبطل خدمة القصر فى يوم موتهـا « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠ » • وما يرويه المقريزى فى حديثه عن الأمير شيخو من قول « وفى عاشر جمادى الآخرة خلع على الأمير شيخو ، وأعيد رأس نوبة ، عوضا عن صر غتمش • فعند لبســه التشريف قدم البشير بولادة بعض سراريه ولد ذكرا ، فسر بـــه سرورا زائدا » ، لأنه لم يكن له ذكر • وهنأه الأدبـــاء بعـــدة قصائد ••• « السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، سنة ٧٥٣ » • كما يؤكد لنا ابن تغرى بردى المؤرخ الشهير فى حديثه عن والده الأمير تغرى بردى الذى توفى سنة ٨١٥ هـ ذلك بقوله : وخلف والدى رحمه الله عشرة أولاد : ستة ذكور وأربع بنات ، ويذكر أن والده أنجب أولاده هؤلاء من ثمان جوارى مختلفـــات الجنسيـــة منهن التركية ، والجركسية ، والرومية ، والتترية • ولم يظهر فى حديثه ما يستفاد منه وجود كراهية سوى قوله : « ونحن جميعا غير أشقة

ما خلا أختى هاجر فانها شقيقتى « المنهل الصافى ، ج ٤ ، ص ٤١ ـ ٤٢ » ٠

وان كنا نرجح وجود بعض التوتر فى العلاقات الأسرية وبخاصة بين أبناء الجوارى بعضهم وبعض ، والدليل على هذا ما رواه المقريزى من أن السلطان فرج بن برقوق كان يمدح الروم ، ويتعصب لهم ، وينتمى اليهم ، فان أمه « شيرين » كانت رومية ، وكان يذم الجراكسة وهم قوم أبيه ٠ وربما انعكس هذا الحال على أبناء الجوارى ، اذ كانوا يفضلون قوم أمهاتهم على قوم آبائهم ، أو العكس ٠ وربما انعكس ذلك التعصب وظهر فى صورة من الصور بين أبناء السيد من جواريه المختلفات ومن نسائه الأحرار « السلوك ، ج ٣ ، قسم ٣ ، ص ١١٧٧ » ٠ وعلى هذا الأساس فمن المرجح والناس على دين ملوكهم أن بقية طبقات المجتمع لم تضع فى اعتبارها وزنا لهذه الاختلافات التى عرفت من قبل ، خاصة وأن الشرع الاسلامى ينص على اعتبار هؤلاء الأبناء من الأحرار ما دام الأب قد ألحقهم بنسبه ، حتى ولو لم يكن قد أعتق هذه الجارية التى استولدها هؤلاء الاولاد ، والتى عادة ما يتم تحريرها عقب وفاة سيدها بحكم الشرع « ابن اياس : نفسه ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٨٥ » أما اذا كان قد أعتقها قبل أن يعقد عليها وكما سبقت الاشارة بذلك فانه فى هذه الحالة تكون هى وأولادها على قدم المساواة مع الأحرار ، والطريق مفتوح أمام الجميع لأن يصل منهم الى أعلى المناصب والرتب من يثبت جدارته ، نذكر على سبيل المثال الشيخ برهان الدين الغزارى الذى توفى سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م وكان شيخ الشافعية فى زمانه ، وكانت أمه جارية من الجوارى « ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ » ٠

كما لا يفوتنا أن نشير الى أن كثيرا من أفراد طبقة الطواشية أو الخصيان وهم الذين وكل اليهم الاشراف على الحريم السلطانى

وحريم كبار الأمراء ، وكذلك الاشراف على خزائنهـــم وغيرها من الأعمال ـ هؤلاء الطواشية اقتنوا الجوارى واعتبروهن جزءا هاما من أسرهم ، بحيث كن موضع ثقة هؤلاء الأمراء ، ويعرفون كل أسرارهم ، مثال ذلك ما يرويه لنـــا ابن اياس فى حوادث سنة ٧٨١ هـ من أنه فى شهر صفر ، قبض على الطواشى مثقال الجمالى . الزمام ، وضرب ضربا مبرحا بسبب اظهار ذخائر السلطان الأشرف شعبان ، فأظهر فى مكان بالقلعة من دور الحريم عدة صناديق ، وجد فى بعضها ثلاثين ألف دينار ذهب ، ووجد فى بعضها خمسة عشر ألف درهم فضة ، كما وجدت له عدة أوراق عند بعض جواريه بخط يده ، تتضمن أماكن أودع فيها كثيرا من الأموال . « بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم٢ ، ص ٢٤١ » .

وتجدر الاشارة الى أنه جرت العادة فى ذلك العصر أنه اذا دخل السلطان أو الأمير الحمام ، صحبته بعض الجوارى لخدمته ، وفيما عدا اللذة الجنســـية نسمع عن وجود « دادة » فى قصور السلاطين ، و « مرضعة » لأبناء السلاطين والأمراء ، وربمـــا فى منازل أسيادهن من طبقات المجتمع المختلفة . كما يفهم مما ذكره ابن الأخوة أن بعض الجوارى كن يقمن بتربية أولاد السيد وادخال السرور عليهم بشتى ضروب الألعاب المسلية ، مثل الدمى والعرائس « معالم القربة ، ص ٨٩ ، سـعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٤ » . كذلك كان يتم استخدام هؤلاء الجوارى فى القيام بكثير من الأعمال المنزلية من غسل وكنس وطهى ونظافة ، ومصاحبة ربة المنزل أثناء خروجها الى الحمام والأماكن العامة ، فضلا عن احضار المياه فى الحالات التى يتعذر فيها الحصول عليه وبخاصة اذا ما نقص ماء النهر « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم٢ ، ص ٥٨٥ » . وبالاضافة الى قيامهن بالخدمات المنزلية المختلفة ،

فقد شكلن قسما حيويا من الطبقة العاملة ، حيث نجد أحـد الشعراء اليهود يمتدح جاريته لعنايتها بمكتبته ، ويصفها كطاهية ماهرة ، وأنها أكثر عناية بدولاب ملابسه
"Goitien : Op. Cit., Vol. I. p. 1:7.

وعن أثر الجوارى فى أحوال المرأة القاهرية بوجه خاص والمصرية بوجه عام ، فمما لا شك فيه أن وجود أعداد كبيرة من هؤلاء الجوارى ، وما نلنه من حظوة فى المجتمع من الرجال ، فضلا عن تفنن الجوارى فى ابراز مفاتنهن ، الى جانب حالة الرخاء الاقتصادى التى شهدتها البلاد فى معظم ذلك العصر ، جعل المرأة المصرية تعتنى كثيرا بزينتها ، فان ابن تغرى بردى مثلا يتحدث عن مبلغ اعتناء النساء بزينتهن فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، فيصف ما كان يرتدين من طرح بلغ ثمن الواحدة منها عشرة آلاف دينار ، ويصور ما كن يتحلين به من خلاخيل ذهبية وأطواق مرصعة بالجواهر الثمينة « النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ١٧٦ » . كذلك يصور لنا ابن الأخوة مدى اسراف النساء فى الزينة ، منكرا ما أحدثنه ، فيقول :

« والنساء فى هذا المقام أشد تهالكا من الرجال ، ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الارخاء والاتراف ، وأهمل انكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف فقد أحدثن من الملابس مالا يخطر للشيطان فى حساب « معالم القربة ، ص ١٥٧ » . ويؤكد لنا المقريزى تأثير الجوارى على سائر النساء فى ابتكار كثير مما نطلق عليه اليوم كلمة « الموضة » بقوله فى سنة ٧٥٠ هـ أيام السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون « أن الخواتين نساء السلاطين وجواريهن أحدثن قمصانا طوالا تخب أذيالها على الأرض ، بأكمام سعة الكم منها ثلاثة أذرع ، فاذا أرخته الواحدة منهن غطى رجلها ،

وعـرف القميص منهـــا فيما بينهن بالبهطلة ، ويبلغ مصروفه ألف درهم فما فوقها ، وتشبه نساء القاهرة بهن فى ذلك ، حتى لم تبق امرأة الا وقميصها كذلك ·· « السلوك » جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٨١٠ » ·

كما يشير الشعراء فى اشارات خاطفة الى بعض ما كان يتفنن فيه نساء ذلك العصر ، من جعل شعورهن على هيئة خاصة ، فمنهن من كانت تفرق شعرها من فوق الجبين ، وتضفره عدة ضـفائر واضحة بعضها فوق بعض ، ومنهن من ترخى هذه الضفائر خلفها ، بينما البعض منهن يسدلن خصلا من الشعر على خدودهن تنساب هفهافة على غير نظام ، أو يجعلن هذه الخصلات تستدير حول الخد على هيئة العقرب ، لذلك كثر حديث الشعراء عن عقارب الأصداغ التى تحمى ورد الخدود « فوزى محمـــد أمين : المجتمع المصرى ، ص ٣١٢ ـ ٣١٤ » ·

أما عن أثر الجوارى فى تفشى بعض الأمراض الاجتماعية ، فمن المعتقد أن وجـود أعداد كبيرة من الجوارى المسيحيات من من الفرنج والأرمن بوجه خاص فى كثير من المدن المصرية عامة ، وفى القاهرة خاصة كان له أثره المباشر فى رواج كثير من الأمراض الاجتماعية فى ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك مما يرويه المقريزى فى حديثه عن سنة ٦٦١ هـ أيام السلطان الظاهر بيبرس من أنه فى يوم الخميس ثامن ذى القعدة ، جلس السلطان بدار السعادة فى الاسكندرية ، وأمر بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيـــات ، والخواطى جمع خاطية ، وهى المرأة الداعرة ، وتسمى أيضا محظية والجمع محظيات · « السلوك ، جـ١ ، قســـم٢ ، ص ٦٠٠ » · ومما يرويه لنا ابن أيبك الدوادارى فى حوادث سنة ٧١٦ هـ أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون من قوله : « وفيها برزت المراسيم

الشريفة بابطال ما كان يستأدونه من الفواحش لمهتار الطبلخانا . السلطانيـــة بمصر والقـــاهرة ، وذلك أنه كان له دار تسـمى دار الزعيم ، ولهـم ناس يدورون على جوارى النـــاس وعبيدهم يفسدونهم ويهربونهم ، فاذا هربت الجارية أو العبد يأتون الى تلك الدار بظاهر باب زويلة ، فيعطون خمسين درهمـا ، حتى يعيدوه اليه ، وأشياء غير ذلك قباح ذكرها ..» «الدر الفاخر ، ص ٢٩٠».

ومن الواضح أيضا أنه نتيجة لكثرة أعداد الجوارى فى ذلك العصر أن ازداد زهد الرجل فى المرأة الحرة ، وهو ما يتضح بجلاء فى حديثنا عن أثر الجوارى فى الحياة الأدبية ، وقابل ذلك زهد المرأة فى الرجل ، أو بحثها عن طريق أخرى تشبع بهـــا نهمها الجنسى مما أدى الى انتشار ظاهرة الشذوذ الجنسى بين النساء ، وخير دليل على ذلك ما سجله ابن دنيال فى كثير من أشـعاره ، ولكن القلم يعف عن كتابة شىء من هذه الأشعار التى تفيض بما فيها من عهر وتهتك . كذلك ربما كان من بين العوامل المشجعة على رواج هذه الظاهرة بين النساء وجود مجتمعات نسائيـــة قائمـة بذاتها تمثلت فى وجود كثير من الأديرة الخاصة بالنساء ، وبعض الخوانق أو الزوايا . فالمقريزى فى حديثـه عن حارة الروم كاحدى حارات القاهرة الشهيرة الى وقتنا الحالى ، يذكر ديرا سماه دير البنات قال عنه انه بحارة الروم بالقاهرة عامر بالنساء المترهبات « على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٢ ، ص ١٢٤ » . كمـا يذكر فى حديثه عن رباط البغدادية بداخل الدرب الأصفر تجـــاه خانقاه بيبرس والذى تم بناؤه سنة ٦٨٤ هـ يقول : « وأدركنا هذا الرباط ، وتودع فيه النساء اللائى طلقن أو هجرن ، صيانة لهن .. لما كان فيه من شـــدة الضبط ، وغاية الاحتراز ، والمواظبـة على وظائف العبـادات حتى ان خـادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحـدا من

استعمال ابريق ببزبوز ، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه »
« الخطط ، جـ٣ ، ص ٤٢٤ » ٠

وقد ألمح الى هذه الظاهرة أحد أدباء ذلك العصر فى واحدة من أشهر بلاليقه ، وهو ابن الطفال حيث يقول :

فى ذى المدرسة جماعة نسا
اذا أمسى المسا ترى فرقعة
نسا ذا الزمان عجيب يا فلان
يكونوا ثمان يصيروا أربعة

« فوزى أمين : نفسه ، ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ »٠

يضاف الى هذا ما تشير اليه كثير من المصادر المعاصرة عن الدور الذى لعبته هؤلاء الجوارى ، وبخاصة من كن ينزلن عند ضامنات المغانى منهن من مزاولة بعضهن لكثير من أمور الدعارة والزنى تحت سمع وبصر الحكام نظير دفع مبالغ من المال أطلق عليها « ضمان المغانى » ، والذى يقول عنه ابن اياس أنه كان « عبارة عن أخذ مال من النساء الباغيات ، وذلك لو خرجت أجل امرأة من نساء القاهرة تقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القدر الذى يتعين عليها ، لما قدر أكبر من فى الحكم بمنعها من البغاء ، وعمل الفاحشة وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر ، وبناتهم ، غاية الفساد من ذلك » فأبطل السلطان الناصر محمد بن قلاون هذه الفاحشة العظيمة من مصر ٠ « بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٤٨٦ » ٠

كما يقول عنه ابن حجر المؤرخ الشهير « وكان ضمان المغانى من القبائح الشنيعة ، ما كان أحد يقدر أن يعمل عرسا حتى يغرم

قدر عشرين الى ثلاثين مثقال ذهب ، وكانوا بمصر والقاهرة لا تغيب مغنية عن بيتها ـ ولو الى زيارة أهلها ، الا أن أخذ منها الضامن لها رشوة • وأما ببلاد الريف فكان للمغانى حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهرا ، ما يقبح ذكره ، ومن اجتاز بها غلطا ألزم بأن يزنى بخاطئة ، فان لم يفعل فدى نفسه بشىء » « أنباء الغمر ، جـ١ ، ص ١٢٧ » •

كذلك من الواضح أن الجوارى كان لهن دور فى ترويج الحشيش ، ويبدو أن هذا الداء قد انتشر أيضا فى مجتمعات النساء ، وربما دل على ذلك ما نراه من قول ابن الوردى فى وصفه مليحة مسطولة من قول :

مليحة مسطولة ان لمتها فيما جرى
تقول كل ظبية ترعى الحشيش الأخضرا

« فوزى محمد أمين : نفس المرجع ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ نقلا عن روضة الآداب ، ص ٢٥٥ »

الجوارى والحياة الأدبية :

لعبت الجوارى دورا بارزا فى فنون القول المختلفة التى رددتها الألسنة على مر الأيام والأعوام • فلقد فتن بهن الكثير من الشعراء بما لهن من حسن وابداع وعبروا عن مشاعرهم نحو الجوارى فى كثير من المناسبات المختلفة • فمنهم من أعجب بجارية تصفق بكفيها ، والتصفيق بالكف وان بدا شيئا عاديا غير أنه ايقاع من الايقاعات الموسيقية يشبه الضرب على الدف تماما • وهو أمر يفطن اليه كل ذواقة للموسيقى • فالشاعر « الدمامينى » وهو

أحد شعراء عصر المماليك كان ذواقه للموسيقى فقال يعبر عن اعجابه باحدى الجوارى التى تفننت فى هذا المجال ، بقوله :

لقد دقت بكفيها فتاة صفت فينا خلائقها ورقت
أفديها مغنية رأينا بها الأفراح حلت حين دقت

ويقول ابن دانيال فى جارية كانت تضرب بالدف :

ذات القوام الذى يهتز غض نقا لو مر يوم عليه طائر صدحا
بدا على الدف كالجمار معصمها أناملا ببنان تشبه البلحا

« محمد قنديل البقلى : الطرب فى العصر المملوكى ، ص ١١ ـ ١٣ » .

ومما لاشك فيه أن الجوارى المغنيات لقين قبولا لدى الناس فلعبن بألباب الناس غناء وجمالا ، وبذلك أطلقن ألسنة الشعراء ، يقولون فيهن ما يعن لهم من خواطر يلهبها ذلك الاحساس المرهف والذوق السليم بحسن الصوت ، مما حرك ملكة القول لديهم يدفعهم الاحساس بالجمال وحلاوة وبراعة الأداء ، ولا نغالى اذا ـ قلنا ـ ان الاحساس بالجمال هو الذى فاض فى شعرهم وغلب على احساسهم بحلاوة الغناء ، فانظر معى الى أحد الشعراء ، يصف احدى الجوارى المغنيات بقوله :

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن
غنت فلم تبق فى جارحة الا تمنيت أنها اذن

« محمد قنديل البقلى : المرجع السابق ، ص ٦٥ ـ ٦٧ » .

وأكثر شعراء هذا العصر من الحديث عن الغناء والمغنين ، وعن الطرب وآلاته . ومن الملاحظ أن ذلك ارتبط ـ فى معظم

الأحيان ـ بمجالس اللهو ، فيقرن الواسطى بين لذة الخمر ولذة الغناء ، فكأن الندامى سكروا بالغناء لا الخمر وذلك عندما يقول :

أغنى مغنينا عن الراح اذا غنى فلم يبق من الشرب صاح
غيبنا بالحسن عن حسنا كأنما جاء بماء وراح

« ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ج٤ ، ص ١٧٣ » . والى مثل ذلك يذهب ابن الصائغ الحنفى فى وصفه لمغنية اذ يقول :

غنت فأغنت عن كئوس الطلا بالسكر من لذات تلك اللحون
فقلت اذ هيمنى صوتها في مثل ذا الحلق تروح الذقون

وفى تلك المجالس نلاحظ أن الجوارى استأثرن بالحظوة ، وذلك لبراعة الكثيرات منهن فى العزف على الآلات المختلفة ، نرى ذلك بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر ، فهذا سيف الدين المشد يصف تلك العوادة التى تحتضن عودها فى حنان ، وتضبط أوتاره فى مهارة فائقة :

وحاضنة صنما ناطقا وتكرم مثواه مثل الولد
تدغدغ أحشاءه صالحا وتعرك آذانه ان فسد

ويقول فى جارية تغنى على الدف :

وجارية قرعت طارها وغنت عليه بصوت رطيب
فعاينت شمس الضحى أقبلت وبدر تقلدها عن قريب

كما يقول ابن نباته فى مجموعة من الجوارى يضربن الدفوف ويعزفن على العود :

وغـوان تغنى عن الطيب   والحلى لهذا تسمى الحسان غوانى
ضاربات الدفوف في جيش لهو   طاعنـات الهمـوم بالعيدان

وطبيعى فى مثل هذه المجالس أن يكون للجمال نصيبه فى احداث اللذة الى جانب الصوت الحسن ، وأن تمتزج لذة السماع بلذة النظر ، ولعل هذا الامتزاج يظهر فى أبيات ابن نباته التى يصف فيها عوادة بقوله :

بروحى هيفاء المعاطف حلوة   تـكاد بألحاظ المحبين تشرب
لقد عذبت ألفاظهـا وصفاتها   على أن قلبى فى هواها معذب
تجاسر عود اللهو يشبه صوتها   فمن أجل هذا أصبح العود يضرب
وأجرى دموع العاشقين بلعبها   فقال الأسى دعها تخوض وتلعب

فاللذة كما ترى ليس مبعثها الغناء وحده أو العزف وحده ، وانما هى ناشئة عن جمال الخلقة فى تلك العوادة الهيفاء ، أو فى تلك المغنية ذات الدل . « فوزى محمـــد أمين : نفس المرجع ، ص ٣٧١ _ ٣٧٣ » .

واقرأ معى هذه الأبيات التى يقولها الفارقى الشاعر فى راقصة من هؤلاء الراقصـات من الجوارى اللاتى أخذن بلب ومشـــاعر المشاهدين والشعراء :

لله راقصـــة تميس كأنهـا   ظل القضيب اذا تمايل مزهوا
تزهو وترجع كالخيال فلا ترى   حركاتهـــا الا كطائفة الكرى
لأنت معاطفهـا فكيف تلفتت   وتفلتت لا يستطاع بأن ترى

وشاعر آخر هو صــلاح الدين الصفدى يصف مغنية عوادة استهواه منها جمالها وضربها على عودها ، وغناؤها ، ولقـد كان

جمالها فيما أظن أسبق الى عينيه من صوتها وصـــوت عودها الى آذنيه فقال :

أبصرت يا عينى ما لم نبصرى وسمعت يا آذنى ما لم تسمعى

فلم يعد لنا فى عصرنا الحالى منه ما كان فى العصر المملوكى من قول مبدع فى وصف السماع وفى وصف الطرب وفى وصف الرقص ، وكأن الآذان لم تعد تطرب ، وكأن الأنظار لم تعد تتمتع وكأن الحياة أصبحت فقيرة من فن الطرب وفن القول . « محمد قنديل البقلى : نفسه ، ص ١٤ ــ ١٥ ، ٦٨ » .

كما أن الباحث فى الأدب المملوكى فى ذلك العصر ســـوف يجد حشدا هائلا من شعر الغزل والذى يعبر أصدق تعبير عــن أثر هؤلاء الجوارى فى الحياة الأدبية ، بل وذوق هـــذا العصر ، ونظرته الى الجمال ، وبعض ما طرأ على معايير هذا الجمال من تطور وتغيير ، كما كان لأسواق النخاسة ، وما تقذف به كل يوم من جوار مختلفات الأجناس والألوان أثرها الواضح فى صورة المحبوبة حيث كانت صورة الجارية الحسناء التى تتقن فن الحـــب هى المثال المستلهم فى كثير من شعر الشعراء فى هذه الحقبة ، فانظر مثلا الى البهاء زهير يقدم لنا صورة هذه المحبوبة التى تتقن الغمز بالعين والحاجب :

أنـــا لا أبـــالى بالرقيـــب ومنظـــره القبيـــح
غمـــز الحواجب بيننـــا أحـــلى من القـــول الصريح

واسمع له يصف جارية مليحة وهى التى أتقنت فنون الاثارة فى قوله : ــ

وهيفـــاء كمـــا تهـــوى تريك القـــد والخـــدا
وتشـــجيك بالحـــان تذيب الجلـــد الصلـــدا
ولفظ يـــوجب الغســـل على السامع والحـــدا

وطبيعي أن مثل تلك الحسناء التى تتقـــن الغمز والرمز ، وتجيد فن الاثارة ، لا يمكن أن تكون احدى الحرائر ، وليس من شك أن الشاعر استلهم صورتها من الجوارى اللاتى امتلأت بهن القصور ، واكتظت بهن مجالس اللهو · ونقف على أمثال هذه الصورة فى شعر الكثير والكثير من أدباء ذلك العصر أمثال ابن عبد الظاهر، وابن فضل الله العمرى ، وابن أبى حجلة وغيرهم ·

كذلك كان لتباين النماذج التى قذفت بها أسواق النخاسة من الجوارى من سوداء وبيضاء ، ومن هندية الى رومية أو تركية أثره فيما نقرأ من نتاج هذا العصر الأدبى ، فقد احتدمت المفاضلة بين محبى البيض ومحبى السمر ، وكل منهم له ما يبرر ذوقه · مثال ذلك ما قاله أحد أعيان شعراء مصر وهو الأمير أحمد بن موسى ابن يغمور ت ٦٩٣ هـ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاون الأولى ، يقول فى مدح جاريته : ــ

سوداء بيضــاء الشمائل حلوة معشــوقة الحركات والألفــاظ
مســكية مســكية أنفاسهـــا هنــدية هنــدية الألحـــاظ

« ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٣٨١ » ·

ومن تغزلات ابن فضل الله العمرى المؤرخ الشهير فى احدى الجوارى قوله : ــ

جــاءوا بأنواع الطيب لنــا تحملها معشــوقة ممشـــوقة
قلت خذوا الطيب لكم جميعــه بشرط ألا تأخذوا المعشــوقة

« ابن اياس : نفس المصدر ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٤٨٨ » ·

ويذكر ابن اياس نقلا عن اصلاح الدين الصـــفدى أن الملك اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون كان يميل الى حب الجوارى الحبش ، والمولدات ، والسود ، وكان يحب من يمـــدح له فى

السمر والسود ، فكان الشعراء يكثرون له من مدحهم ، فمن ذلك قول الشيخ زين الدين بن الوردى :

لو كان يرضي بحكمى ... في الناس بيض وسود
لقلت للبيض بيضوا ... وقلت للسود سودوا

وقال ابن نباته :

يكون الخال في خد قبيح ... فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام شغوف على من ... يراه كله من العين خالا

وقال آخر في حبشية :

سمراء تسبى الورى بشرط ... كخنجر هم بالرقيب
أقامه عشقها طريقا ... يسير فيه الى القلوب

وقال آخر :

سمراء كالغصن الرطيب قوامها ... تسبى الأنام بفاتر الأحداق
ترمى بقسى حواجب من لحظها ... نبلا تصيب مقاتل العشاق

« ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٥٠٠ » .

بل ربما مال الشاعر الى جانب ثم عاد فمال الى الآخر وليس في هذا غرابة ، وليس فيه مجال للحكم عليه بالادعاء ، فالشاعر ملك لحظته ، وهو رهن بالموقف الذى امتلكه ، وبالصورة التي ملكت عليه فؤاده . ونضرب لذلك مثلا بالبهاء زهير ، فهو حينا يفضل السمر وينتصر لهن ، وحينا آخر يفضل البيض وينتصر لهن .

فيقول فى تفضيل السمر :

السمر لا البيض هم	أولى بعشقى وأحق
وأن تدبرت مقالى	منصفا قلت : صدقت
السمر فى لون اللمى	والبيض فى لون البهق

ويعود مرة أخرى فيفضل البيض ، فيقول :

ألا ان عندى عاشق السمر غالط	وأن الملاح البيض وأبهى وأبهج
وانى لأهوى كل بيضاء غادة	يضىء بها وجه وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى	ولا شك أن الحق أبيض أبلج

« فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى ، ص ٣٠٧ » .

كما يبدو أن الجمال التركى كانت له الغلبة فى المضمار ، ففتن الناس به ، ورأى الشعراء فى المرأة التركية صورة مثلى للجمال ، فكثر تغزلهم بالتركيات ، واشادتهم بجمالهن . وخير مثال لذلك ما نقع عليه فى شعر محى الدين ابن عبد الظاهر من وصفه احداهن بوجهها الناصع ، وشعرها الفاحم ، بحيث تبدو له كالملكة على ما فى الكون من مظاهر الجمال ، فالبدر لا يزيد على حامل لغاشية موكبها ، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها . ولا شك أنه يستمد هذه الصورة مما يراه فى المواكب السلطانية .

كما سادت معايير الجمال التركى ، فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال ، كذلك صارت العيون الضيقة مثار فتنة الشعراء .

« محمد فوزى أمين : المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ، ص ٣٠٥ ـ ٣١١ » .

وقد أثرت الجوارى فى الذوق المصرى تأثيرا واضحا ، فلم يعد الشاعر المصرى يتغزل فى الجمال الأنثوى الذى تغزل به العرب ، بل أصبح الجمال التركى والمغولى هو ذوق العصر ومثار اعجاب الشعراء ، بينما أصبح الجمال العربى مرفوضا الا من الشعراء الذين ينحدرون من أصول عربية ، وهذا ما يظهر بوضوح فى أشعار كثير من الشعراء الذين عاصروا تلك الفترة •

كما تداعى شعراء ذلك العصر على اختلاف منازلهم الى اللهو والخلاعة والمجون بحيث يمكن القول أن هذه الأمور أصبحت مذهبا يتمذهب به الناس ، بل أصبحت فلسفة يعتنقونها • فقد نظروا الى الخلاعة على أنها راحة تسلى هموم الشخص عند انقباضه وقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ولا يميل الى قول فيه البلاغة والبراعة ، لأن النفوس فى تلك الآونة كانت متشوقة الى شىء يسليها عن الهموم ويزيل عنها وارد الغموم ، على حد قول الشربينى « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف . ص ١٥ » •

ويرى بعض الباحثين المحدثين أنه نتيجة لكثرة أعداد الجوارى فى المجتمع المصرى بوجه عام والقاهرى بوجه خاص فى عصر سلاطين المماليك ، وما ترتب على ذلك من تغيرات اجتماعية وأدبية أن أثمر ذلك العصر وهو عصر سلاطين المماليك فنا جديدا لم تعرفه الثقافة العربية والاسلامية من قبل ألا وهو فن النقد الاجتماعى والدعوة الى الاصلاح الدينى والاقتصادى ، وأن من حق المكتبة العربية الاسلامية أن تفخر بثلاثة كتب قيمة وفريدة فى موضوعاتها وهى كتاب المدخل الى الشرع الشريف على المذاهب لمؤلفه أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى المتوفى سنة ٨٠٣ هـ ، والكتاب الثانى هو اغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى مؤرخ العصر

العظيم . والكتاب الثالث هو معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ .

والكتاب الأول وهو المدخل يكشف لنا عن المفارقات العجيبة فى حياة الناس ، ويبين لنا مدى ابتعادهم عن روح الاسلام ، وينتقد ما شاع فى أوساط العامة من بدع وعادات رذيلة ، وأخلاق دميمة . فقد حمل فيه صاحبه حملة شعواء على تهتك نساء العصر وخروجهن متبرجات متزينات وهن يرتدين الثياب القصيرة التى تكشف عن عوراتهن ، كما حمل على طريقتهن فى المشى وضربهن الأرض بأرجلهن أثناء المشى ليعلم ما يخفين من زينتهن « المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٦ » . وحمل كذلك على مصادقة النساء الرجال وخروجهن معهم فى الليل الى المقابر أو الى البركة ، كما نعى على اغتسال بعض النساء فى البركة على مرأى من الرجال (المدخل ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ » . والكتاب الثالث وهو معيد النعم ومبيد النقم ، فهو أيضا فريد فى بابه ، اذ يعقد لكل ذى عمل أو حرفة أو وظيفة فى الدولة فصلا يبين له فيه واجب عمله وما يقتضيه منه . ولم يقتصر على النصح والارشاد ، بل وجه سهام النقد لكل ما يخالف روح الشريعة وجوهر الاسلام . « حبشى سيد نصر : المجتمع المصرى فى الشعر المملوكى ، ص ٨٣ ـ ٩٠ . رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر » .

ومما يذكر أن السلطان الغورى كان يجتمع اليه فى مجالسه الشهيرة التى كان يعقدها فى القلعة وينشأها كثير من الأدباء المبرزين ، هذه المجالس كان يتبارى فيها الشعراء فى قرض أشعار الغزل ، وكانت الجوارى بجنسياتهن المختلفة من أتراك وحبش وأحباش مصدر الهام لكثير من هؤلاء الشعراء . « الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ، ص ٦٣ ـ ٦٥ » .

ويذكر القلقشندى أن كثيرا من النـــاس قد جنحـــوا الى استحسان السودان والميل اليهم ، وتأنقوا فى الاحتفال بأمرهم . وكذلك يروى أن الناس استحسنوا سواد الشعر ، وأكثر ما يكون ذلك فى السمر « صبح الأعشى : ج ٢ ، ص ٥ » .

من أهم الآثار الأدبية :

ولم يكن غريبا فى عصر حفلت فيه القصـــور بالجوارى أن تفيض الأقلام بالمجون ، وأن يكون مدادهـــا من الخمر واللهو والمنادمة ومن ثم تراهم وصفوا الشراب ومجالسه والجارية وغـير ذلك من مقومات المجون . « محمد كامل الفقى : الأدب فى العصر المملوكى ، ص ١٢٠ » .

كما كان للجوارى الفضل الاكبر فى نهضة الأدب عـــامة والشعر خاصة ، وأن المكانة التى وصل اليها الشعر فى ذلك العصر لمدينة لهن ، ففيهن قال الشـــعراء ، ووصفوا وأبدعوا وتغزلوا ومجنوا .. ولغنائهن تفننوا وتخيلوا وتسابقوا ، فأرونا ألوانـا جديدة من التصـــوير والتفكير والتعبير ، وعرضوا علينا صـــورا من انفعالات النفس ويقظة الوجدان بصـــورة لم يعرفهـــا الشعر العربى من ذى قبل . « أحمد عبد الرازق : العلاقات الأسرية فى المصطلح المملوكى ، المجلة التاريخية ، العدد ٢٣ ، لسنة ١٩٧٦ ، ص ٤٩ » .

وأكثر شعراء هذا العصر من الحديث عن الغنـــاء والمغنين ، وعن الطرب وآلاته ، ونلاحظ أن ذلك فى معظم الأحيـــان ارتبط بمجالس اللهو ، مثال ذلك قول ابن الصائغ الحنفى فى وصـــفه لمغنية وكما سبقت الاشارة بذلك فى قوله :

غنت فأغنت عن كئـوس الطلا بالسكر من لذات تلك اللحون
فقلت اذ هيمني صوتهـــا فى مثل ذا الحلق تروح الذقون

« خزانة الأدب ، ص ٣٩٥ » ٠

ويجب أن نضيف الى كتب النقد الاجتماعى الهادفة أقـــوال ابن أبى حجلة التلمسانى فى كتابه « ديوان الصبابة » ، وقـد كتب ابن أبى حجلة كتابه هـــذا للسلطان الناصر حسن الذى شغف بحب النساء وبخاصة الجوارى ، وبذلك جعل ابن أبى حجلة كتابه قائما على أخبار الحب والمحبين ، الا أن ابن أبى حجلة لاينى بين الحين والحين أن يدس النصيحة فى ثنايا كلامه ، محـذرا السلطان من مغبة الانقياد للهوى ، وما يجر اليه من ضياع الملك، وفساد أمر الرعية ، فيقول منبها السلطان ، مستشهدا بأمثلة من التاريخ لمن كان الهوى سرا فى زوال ملكه :

« ومنهن من نال بالراح اللذة المحظورة ، وأخرج بها وجنة الحبيب من صورة الى صورة ، فجارى النديم فى الجريال ، وسـما الى الحبيب سمو حباب الماء حالا على حال ، فأفضى به ذلك الى هلكه، وفساد ملكه ، كما اتفق للأمين بن الرشيد وغيره » ٠ وفى مكان آخر يحاول أن يلفت نظر السلطان الى أن شغفه بالنساء ينبغى ألا يصرفه عن الملك والقيام بأموره ، فيقول : « وقد تقدم أن الملوك ليسوا كغيرهم فى العشق ، وأن الملك العظيم قد يعشق ، ولا يذهب به عشقه الى ترك تدبير ملكه ، وهناك طبقة أخرى دون الملوك اذا عشقوا لم يتفرغوا لاشتغالهم بصنائعهم ، وطبقة أخرى يبخلون بأديانهم وعقولهم عن شغل قلوبهم بما لا يحل لهم ويحرم عليهم»٠ وهكذا نرى أن ابن أبى حجلة كان يضع نصب عينيه أيضا قضيه القيم ، ولذلك لا يفتأ من حين لآخر أن ينبه السلطان ، ذاكرا له مغبة الانقياد وراء الشهوات ٠ مبينا له الســـبيل التى ينبغى أن

يسلكها الملوك ، ولكنه يؤدى كل ذلك فى صورة رقيقة مهذبة ، ويوجه نصحه هينا خفيفا لا يكاد السلطان يحس أنه موجه اليه ، وانما هو يوقظ الفكر وينبه الوجدان · « ديوان الصبابة ، ص ٤٠ ، ٤١ ، ١٩٨ ، فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ » ·

كذلك ظهرت آثار النقد الاجتماعى واضحة فى أشعار كثير من الشعراء المعاصرين ، حيث سخر بعض الشعراء بمجون السلاطين ولهوهم ، فاسمع لأحدهم وهو يسخر من شغف السلطان الناصر حسن بالنساء بوجه عام والجوارى بوجه خاص فى قوله :ـ

لما أتى العاديات وزلزلت حفظ النساء وما قرأ للواقعة
فلأجل ذاك الملك أضحى لم يكن وأتى القتال وفصلت بالقارعة
لو عامل الرحمن فاز بكهفه وبنصره فى عصره فى السابعة
من كانت القينات من أحزابه عطعط به الدخان نار لامعة
تبت يدا من لا يخاف من الدعا فى الليل اذ يغشى يقع فى النازعة

« ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٣١٦ . فوزى محمد أمين : نفسه ، ص ١٥٨ » ·

ومما لا شك فيه أن مثل هذا الشاعر الفقيه لم يعجبه ما آلت اليه الأحوال ، فاستخدم فى شعره التورية مستعينا بأسماء السور القرآنية لكى يعبر عن سخطه من ذلك السلطان الذى استلان مجالس النساء من الجوارى ، وحفلت مجالسه بهن وبخاصة من الجوارى المغنيات أمثال « عطعط » و « الدخان » ، كما أنه يسخر من ادعاء المماليك التدين ، وتسابقهم الى بناء المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية والخيرية والاجتماعية، وهذا ما يتضح أكثر فى بعض أبيات للقصيدة التى قالها الشاعر

« ابن مكانس » يسخر فيها من الوزير « ابن النشو » حين أنشأ سبيلا بالجامع العمرى يقول فيها :

أنشأ العظيم النشو لما ارتقى   وزارة زادته فى وزره
بالجامع العمرى سبيلا وقد   قالت لنا عنه بنو مصره
هذا سبيل حاله فاسد   وزيره يرشح من قعره

« ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج ٢ ، ص ٢٥١ »

وربما تعلمت الجوارى الأدب والشعر بحيث كانت منهن من تقرضه وتطارح الشعراء وكما حدث فى العصر العباسى الأول وبخاصة فى بغداد العاصمة ، وربما أصبحت بذلك مغنيات مثقفات تتطلع اليهن النفوس ، وتتشوق اليهن القلوب ، وربما نلن بتلك الثقافة حظا من المكانة والجاه ٠

الجوارى والحياة السياسية :

من الملاحظ أنه كثيرا ما تردد المصادر المعاصرة أسماء كثيرات من الجوارى اللاتى قدر لهن أن يلعبن دورا هاما وبارزا فى قصور السلاطين والأمراء فى العصر المملوكى ، وقد سبق لنا أن أشرنا الى زواج كثير من السلاطين المماليك ببعضهن ، فارتفعن بذلك الى منزلة خوند الكبرى فى القصر السلطانى ٠

كما حدث فى عهدى الظاهر خشقدم وكذلك الأشرف برسباى « ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٧ ، ص ٧٣٨ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٣ » ٠ كما تتواتر فى المصادر المعاصرة أيضا سير بعض الجوارى ممن قدر لهن أن يلعبن دورا هاما فى تصريف بعض شئون البلاد السياسية ، مثال ذلك ما يرويه لنا المقريزى فى ذكره لحوادث سنة ٧٤٢ هـ أيام السلطان

الملك المنصور أبى بكر بن الناصر محمد بن قلاون ، عندما طلب الأمير بشتاك من السلطان أن يوليه نيابة الشام ، وبعث الى الأمراء الكبار يطلب منهم المساعدة على ما قصده ، فقد فرق عـــدة من الجوارى عليهم ، بحيث لم يبق أحد من الأمراء الا وأرسل اليه ٠ فما زال الأمراء بالسلطان حتى أنعم عليه بنيابة الشام « المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم٣ ، ص ٥٦٠ ــ ٥٦١ ٠ وما يذكره لنا فى حوادث سنة ٧٤٥ هـ فى عهد السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الناصر محمد ابن قلاون من أن الأمير الحاج آل ملك نائب السلطنة كان اذا سأله أحد اقطاعا أو مرتبا قال له : « يا والدى ! رح الى باب الستارة أبصر طواشى ، أو توصل لبعض المغانى تقضى حاجتك » «السلوك ، جـ٢ ، قسم٣ ، ص ٦٦٧ هـ» كما تشير المصادر أيضا الى أن احدى الجوارى المغانى كانت من أعظم الأسـباب فى المغانى فى سنة ٧٧٩ هـ حيث « سألت السلطان ذلك ، فأجـاب اليه » « ابن حجر : أبنـاء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٦٣ ــ ١٦٤ بل نسمع فى عهد السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل نفسه عن استيلاء الجوارى على أمور الدولة ، ومعارضتهن لنائب السلطنة آنذاك وهو الأمير الحاج آل ملك ، « وأبطلوا ما أحبـوا ابطـاله مما يرســـم به ٠٠ » « المقريزى : الســلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٥٣ » ٠

ويذكر ابن الصيرفى فى وفيــات ســنة ٨٠٢ هـ عن زوجة السلطان الملك الظاهر برقوق خوند شيرين ، والتى كانت أصــلا من جواريه وتزوجها ، أنها لعبت قبل وفاتها دورا هاما فى خلاص الأمير تغرى بردى والد المؤرخ الشــهير جمال الدين يوســـــف أبى المحاسن من السجن ، حيث شفعت له عند السلطان فلم يرد شفاعتها ٠ « نزهة النفوس » جـ٢ ، ص ٨١ » ٠ وقد تكررت هذه

الشفاعة من جوارى السلاطين حيث نسمع أنه فى عام ٨٧٦ هـ أيام السلطان الأشرف قايتباى أن احدى زوجاته وكانت أصـلا من جواريه قد سألت السلطان فى اطلاق سراح بعض الأمراء المماليك المسجونين ، وكان هذا « من باب الفرج بعد الشدة والسرور بعد النـوح ، والأمن بعد الخوف « ابن الصـيرفى : انبـاء الهصر ، ص ٤١٧ » ٠

كما يبدو أن تلك المكانة التى تمتعت بها الجوارى وبخاصة الجوارى المغانى ، قد أغرت هؤلاء على المشـاركة فى جانب من جوانب الحياة السياسية عن قرب ، وذلك باصطناع أغانى فى هجاء بعض الأمراء المعادين وذكر مثالبهم ، والتغنى بأمجاد بعض السـلاطين والأمراء ٠ « محمد قنـديل البقلى : نفس المرجع ، ص ١٠٤ » ٠٠ بالاضافة الى أنه عندما أدرك المعاصرون سـلطة النساء بوجه عام والجوارى بوجه خاص صاروا يوسطوهن لقضاء حوائجهم ٠ وليس أدل على ذلك مما يرويه ابن الصيرفى فىوفيات سـنة ٨٣٩ هـ من قول « وماتت خوند جلبان الجركسية زوجة السلطان ـ برسباى ـ وأم ولده المقام الجمالى يوسف فى يوم الجمعة ثانى شوال ، وقيل انها ماتت مسمومة ، ودفنت بتربـة السلطان التى أنشأها بالصحراء خارج باب المحروق ، وكانت هى سعد السلطان وسعادته رأيه ومشورته ، وقصدت لقضاء حوائج الناس فقصدت من أقصى البلاد ، وخدمها أرباب الدولة فأثـرى مالها ، وكان السلطان منقادا لما تقوله ، مطيعا سامعا لما تأمر به لا يمكنه أن يطأ جارية من جواريه الا خفية خوفا منها ، وصـار عظيم الدولة عبد الباسط يتلطف فى السؤال لها فى غالب الأمور حتى يقضى حاجته عند السلطان ، هذا بعد أن أحضرت الى بيته مع تاجرها وعرضت عليه فلم يقبلها لا بهبة ولا بابتياع ، فوصلت

الى السلطان فحظيت عنده وصارت هى صاحبة الحل والعقد حتى بالغ بعض من قال : « صـــار أمر مصر وحكمها معذوقين بخصى ومرة » ، يعنى جوهر الخازندار وخوند جلبان ، وكذا خوند مغل البارزية زوج الظاهر جقمق ، سألوه بهـا فامتنع بعد أن رآهـا ورمى دينارها ثم لم يرض بها فصـــارت فى أيام الظاهر جقمق خوند ، وصار هو من تحت أمرهـــا » « نزهة النفوس ، جـ٣ ، ص ٣٦١ » . كما أنه كثيرا ما نسمع أنه اذا ما تعذر على تاجر مثلا قضاء مطلب عند أهل الدولة ، بحث عن الطريق الذى يوصـــل به شكواه الى حريم السلطان ، وبخاصة من الجوارى ، وعن هذا الطريق كانت تقضى حاجته فورا . « بن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ١١٦ ، سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٦ — ١٣٧ » .

وواضح أن هؤلاء أصحاب المصالح أغدقوا الكثير من الأموال والهدايا على حريم السلاطين ، لقضاء مصالحهم ، وليس أدل على هذا من قول المقريزى عن خوند جلبـان زوجة السلطان برسباى « وكانت قد تصدت لقضاء الحوائج ، فقصدها أرباب الدولة لذلك وكثر مالها » . « السلوك ، جـ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩٨٥ — ٩٨٦ » .

ونسمع أيضا فى المصـــادر المعاصرة أن كثيرا من أرباب الوظائف المختلفة كانوا يحملون الى الجوارى لدى السلاطين وكبار الأمراء الهدايا القيمة والنفيسة حتى تستقر لهم هذه الوظائف وكذلك أرباب الرواتب سواء من المماليك أم غيرهم « المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٢٧ » .

يضاف الى هذا ما تشير اليه بعض المصادر المعاصرة من أن كثيرا من كبار الأمراء كانوا يستغلون بعض الجوارى لدى السلاطين كعيون لهم على هؤلاء السلاطين ، وذلك للوقوف على كل ما يحاك

فى القصر السلطانى من مؤامرات ضدهم ورصد حركات السلاطين وأتباعهم ، مثال ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٧٦٢ هـ أيام السلطـان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ، من أنه عندما بلغ السلطان أن الأمير يلبغا الخاصكى كان يريد قتل السلطان ، وأنه لا يدخل الى خدمة السلطان الا وهو لابس آلة الحرب من تحت ثيابه ٠ فاستدعاه السلطان ونزع عنه ثيابه كلها ، ثم كتفت يد .. .. شـفعت فيه احدى جوارى السـلطان وكانت من حظايا السلطان ، فأخلى سبيله وخلع عليه ٠ فلم يكن من الأمير يلبغـا الا أن اشتد حنقه على السلطان وأظهر العصيان ، وألبس مماليكه آلة الحرب ، فلما علم السلطان بذلك قرر أن يخرج اليه فى طائفة من مماليكه ليكبسه على غرة ويأخذه من مخيمه ، الا أن الخبر وصل بذلك الى الأمير يلبغا من تلك الحظية التى شفعت فيه ، مما كان سببا فى زوال ملك هذا السـلطان « المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، قسم ١ ، ص ٦٠ ــ ٦١ » ٠

كذلك يتضح أثر الجوارى فى مجريات الحياة السياسية أشد الوضـوح فى كتاب ابن أبى حجلة التلمسـانى « ديوان الصبابة » الذى كتبه للناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون ، والذى اشتهر عنه أنه شـغف بحب الجوارى ، والذى يطلع على هذا الديوان يجد أن مؤلفـه لا ينى بين الحين والحين ان يدس النصيحة للسلطان وأمثاله من سلاطين وأمراء المماليك فى ثنايا كلامه ، محذرا لهم ٠ من مغبة الانقياد للهوى ، وما يجر اليه ذلك من ضياع الملك ، وفساد أمر الرعية فنراه يقول : « وقد تقـدم أن الملوك ليسوا كغيرهم فى العشق ، وأن الملك العظيم قد يعشق ولا يذهب به عشقه الى ترك تدبير ملكه ٠٠ » « فوزى محمد أمين : نفسه ، ص ١٥٢ » ٠

وهكذا يحدثنا التاريخ عن النفوذ الذى وصلت اليه كثير من الجوارى فى عصر سلاطين المماليك حتى ان بعضهن كان لهن دور كبير فى تسيير أمور البلاد والعباد · ليس هذا فحسب ، بل كثيرا ما نسمع فى نفس المصادر المعاصرة عن أن السلاطين خصصوا كثيرا من الرواتب لهؤلاء الجوارى « المقريزى : السلوك جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٢٧ » حتى مع الأزمة الاقتصادية التى أخذت تعانى منها البلاد منذ أواخر القرن الرابع عشر للميلاد بسبب استنزاف مواردها فى الحروب الكثيرة التى قدر لها أن تخوضها ضد الصليبيين تارة ، وضد المغول تارة أخرى أو ضد الارمن فى آسيا الصغرى تارة ثالثة ، أو ضد العناصر الخارجة عليها ، بالاضافة الى بداية انقطاع ورود ذهب السودان ، ونقصد به ذهب بلاد غرب ووسط أفريقيا نتيجة لتوغل أبناء الغرب الأوربى الى تلك المناطق وبخاصة البرتغاليين وامكانهم تحويل تجارة الذهب عن طريق القوافل التى كانت تحمله الى شمال أفريقيا الى المحيط الأطلسى فى غرب أوربا من جهة ، ومن جهة أخرى كثرة الأزمات الاقتصادية نتيجة لتكرار عدم وفاء نهر النيل وانخفاضه ، وما كان يتبع ذلك من انتشار كثير من الأوبئة والمجاعات ·

موقف الشرع الاسلامى من الجوارى :

لا شك أن الاسلام قد ارتقى بالمرأة بوجه عام ارتقاء بينا عندما حفظ لها حريتها بتحريمه اختطافها · وفى حين أن الشرع اليهودى يجيز لليهودى أن يستعبد يهوديا آخر لمدة معينة لا تزيد على ست سنوات ، الا اذا ألح العبد على البقاء فى كنف مولاه ، فله أن يحتفظ به · وقد جاء فى سفر الخروج ما نصه : « اذا ابتعت عبدا عبرانيا ، فليخدمك ست سنين ، وفى السابعة يخرج وحده ، وان كان ذا زوج فليخرج زوجه معه ، وان زوجه مولاه

بامرأة فولدت له بنين وبنات ، فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه ، وهو يخرج وحده « التوراة ، سفر الخروج » • كما أن الديانة المسيحية كانت تعتبر اقتراب الرجل من جاريته زنى صريحا ، واذا انجبت الأمة ولدا نشـأ رقيقـا يحمل عار والده الزانى ، وللزوجة الشرعية أن تبيع الأمة أو تقصيهـا عن منزلها « محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ، من سلسلة أعلام العرب ، ص ٦٩ » •

أما الدين الاسلامى فقد حث على عتق الجوارى ، وقد جعل الاسلام عتق الرقيق كفارة عن القتل الخطأ ، وكفارة عن الحنث فى اليمين ، وكفارة عن الافطار عمدا فى شهر رمضان • وهذه الأخطاء جميعا كثيرا ما يتورط فيها الانسان ، وجعل عتق الارقاء كفارة لها من شأنه أن يزيد من الأحرار ويقلل من العبيد ، ويرد الى الانسان كرامته كانسان • « المرجع السابق نفسه ، ص ٧١ » • كما أن الاسلام ارتقى بالجوارى وضمن لهن عفتهن وسلامة شرفهن حينما نص فى القرآن الكريم « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرهن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » « من سورة النور ، الآية ٣٣ » •

ولم يترك الاسلام فرصة من فرص التحرير الا انتهزها ، فسن طريقة التدبير ، وهى أن يوصى السيد بأن يكون عبده حرا أو جاريته بعد موته ، واتفق الأئمة أنه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام ، فالقول للغلام مع يمينه أنه حر • وبتطبيق القاعدة المشهورة « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » نجد أن الشرع الاسلامى قد اعتبر أن حرية الانسـان هى الأصـل وأن الرق أمر عارض ، فكلف من ادعاه بالبينة ، واكتفى ممن أنكر باليمين ، ولا يخفى ما فى ذلك من شدة حرص الشارع على تحرير الارقاء ما وجد اليه سبيلا • أضف الى

ذلك اجماع الفقهاء على أنه اذا التقط شخصان لقيطا فادعى مسلم أنه عبده وادعى كافر أنه ابنه ، فانه يقضى ببنوته للكافر حتى يكون حرا ، ولا يقضى للمسلم حتى لا يكون رقيقا • وهذا يبين لنا مبلغ تقديس الاســـلام للحرية « حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ٣٦٥ » •

وبالنسبة لرق الوراثة فقد قرر الاســـلام أن من تأتى به الجارية من سيدها يولد حرا ، ويلتحق نسبه بالسيد ، وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها ، ويسمى الفقهاء هذا النوع من الجوارى أمهات الأولاد ، وقد حظر الاسلام على السيد أثناء حياته أن يبيع أم ولده أو يهبها أو يتصرف فيها أى تصرف ينقل ملكيتها ويعوق حريتها وفى هذا يقول الرسول عليه الصلاة السلام « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة فى جميع الحال » « أحمد خيرت : مركز المرأة فى الاسلام ، ص ١٩ ــ ٢٠ » • وفى حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم « أى امرأة ولدت من سيدها فانها حرة اذا مات » •

وعن عمر رضى الله عنه أنه قضى بأنها لا تباع وأنها حرة من رأس مال سيدها اذا مات • وروى مثل ذلك عن عثمان وهو قول أكثر التابعين وجمهور الفقهاء •

« ابن رشد : بداية المجتهد ، جـ٢ ، ص ٣٢٥ ــ ٣٢٦ » •

وعلى هذا فان الابنة التى تولد للمسلم من جاريته تكون حرة اذا اعترف بها والدها ، وفى هذه الحالة يجب على السيد أن يكتب صكا ليلحقها به ، ويكون نصه كما يلى : « أقر فلان بأنه كان قبل تاريخه وطىء مملوكته التى بيده وملكه المقرة له بالرق والعبودية ، والمدعوة فلانة ، الفلانيـــة الجنس ، الوطء الصـــحيح الشرعى ، واستولدها ولدا « ذكرا أو أنثى » يسمى فلانا ، الطفل يومئذ ، وهو

الآن فى قيد الحياة ، وأنه من صلبه ونسله ، ونسبه لاحق بنسبه » « النويرى : نهاية الأرب ، جـ٩ ص ١٣٥ ، جبور عبد النور : الجوارى ، ص ١٦٦ » · والأولاد الذكور والاناث الذين يعترف بهم المولى المسلم يرثون والدهم أسوة باخوتهم وأخواتهن الذين ولدوا من الحرائر · وكثيرا ما كان السيد يحرر أمته أم الولد ، ويتزوجها زواجا شرعيا رفعا من شأنها وشأن أولاده منها ، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر · وهـذا الوضـع يخالف كل المخالفة ما يقرره الشرع المسيحى من منع اقتراب الرجل من جاريته ، لأنه يعد ذلك زنى صريحا وكما سبقت الاشارة بذلك ، فيحمل الولد عار والده طول حياته ، وتخول الزوجة الشريعة أن تبيع الجارية أو تقصيها عن المنزل ، ويخالف أيضا الشرع الرومانى الذى يقرر أن المولود تابع لحالة الوالدة من حيث الرق · وكثيرا ما كان السيد يحرر جاريته أم الولد ، ويتزوجها زواجا شرعيا رفعا من شأنها وشأن أولاده منها ، فتتمتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الأحرار « جبور عبد النور ، الجوارى ، ص ١١٣ ــ ١١٤ » · كما كان بعض الأمراء يتزوجون جوارى لسن ملك أبويهم ، بعد أن يدفعوا لأسيادهن الصداق المترتب عليهم · وفى مثل هذه الحالات يحدد الشرع الشروط التى يجب أن تتم فى الحر الذى يود التزوج من أمة غيره · فيقضى ألا يكون متزوجا بحرة ، وألا يكون لديه المال الذى يكفى لصداق حرة ، وأن يخشى عليه التهور فى حياة المجون ، بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر ، وأحفظ لنفسه ودينه · وفى هذه الحالة كانت تتم كتابة وثيقة ينص فيها على « هذا ما أصدق فلان فلانة مملوكة فلان ، المقرة لسيدها بالرق والعبودية ، عندما خشى على نفســه العنت ــ الفجور والزنا ــ أو خـاف الوقوع فى المحظور ، لعدم الطول ، وأنه ليس فى عصمته زوجة ، ولا يقدر على صداق حرة على ما شهد له به من يعينه في رسم شهادته ، صداقا تزوجها به مبلغه كذا وكذا ، وولى أمر تزويجها اياه بذلك

سيدها المذكور بحق ولايته عليها شرعا « ثم يذيل بالفقرة التالية التي تضاف الى العقد : « وشهدت البينة أن الزوج المذكور فقير ليس له موجود ظاهر ، ولا مال باطن ، ولا له قوة على نكاح حرة ، ولا في عصمته زوجة ، وأنه عادم للطول » « النويري : نهاية الأرب ، ج٩ ، ص ١٢٣ » ٠

واذا ما حررت الجارية تمهيدا لعقد النكاح الشرعي فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها السابق ، وعندئذ تخرج من عصمته ولا يحق له أن يعيدها الى : ملكه ، بل تطلق حرة ٠ ومن القيود التي فرضها الشرع في معاشرة الجواري ما فرض على الزوج من تحريم الاقتراب من أختين ، والأم وابنتها والعمة وابنة أخيها وغيرهن من ذوي الرحم المحرم جريا على السنة المتبعة في النكاح الرسمي ، كما أنه حرم على رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معا ، لأن الشرع يعاقب على مثل هذه الفعلة ويعتبرها زنى صريحا ٠ « جبور عبد النور : الجواري ، ص ١١٧ – ١١٨ » ٠

وفي هذا يقول الشافعي رضي الله عنه « واذا ملك الرجل الأختين بأي وجه ما فله أن يطأ أيتهما شاء واذا وطيء احداهما لم يجز له وطء الأخرى حتى يحرم عليه فرج التي وطيء بأي وجه ما حرم من نكاح أو عتاقة أو كتابة « كذلك قال : ولا يحل وطء الأم بعد البنت ولا البنت بعد الأم من ملك اليمين ولا يحل وطء المملوكات بشيء لا يحل من وطء الحرائر مثله الا أنهن يخالفن الحرائر في معنيين فيكون للرجل أن يملك الأم وولدها ولا يكون له أن ينكح الأم وابنتها ويجمع بين الأختين من الملك ولا يجمع بينهما من النكاح ٠ ويطأ من الولائد ما شاء بالملك في وقت واحد ولا يكون له أن يجمع بين أكثر من أربع بالنكاح » « الامام الشافعي : كتاب الأم ، ج٤ ، ص ١٨٧ » ٠ وبذلك نرى أن الشرع الاسلامي لم يفرق في المعاملة الكريمة بين الجواري والحرائر من النساء ٠

ومن السبل الشرعية التي وضعها المشرع الاسلامي لتساعد على عتق الجوارى أو تحريرهن والقضاء على الاسترقاق بشكل تدريجي ومنظم العتق عن طريق المكاتبة ، حيث سمح للأسياد أن يعتقوا عبيدهم وجواريهم مقابل مبلغ معين يدفع لهم منجما أى على أقساط شهرية حسب مصطلحنا الحالى ، حتى اذا استوفى المولى القيمة المتفق عليها أصبحت الجارية حرة ولضمان حقوق كل من الطرفين تجاه الآخر كان يكتب في مثل هذه الحالة النص التالى : ـ

« كاتب فلان مملوكه أو مملوكته ، الذى بيده « أو التي بيده » وملكه المقر له « أو المقرة » له بالرق والعبودية المدعو فلانا « أو المدعوة فلانة » ، الفلاني الجنس ، المسلم ، لما علم فيه من الخير والديانة والعفة والأمانة ولقوله تعالى : « فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا » على مال جملته كذا وكذا ، يقوم به منجما فى سلخ كل شهر كذا وكذا ، وأبرأه منه ··· واذن له سيده فى التكسب والبيع والشراء ، فمتى أوفى ذلك كان حرا من أحرار المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، لا سبيل لأحد عليه ، الا سبيل الولاء الشرعى ، ومتى عجز ، ولو عن الدرهم الفرد ، وكان باقيا على حكم العبودية » « النويرى : نهاية الأرب ، جـ٩ ، ص ١١٣ » · فان وفى العبد أو الجارية مال الكتابة كان يحصل على صك أو وثيقة تكتب على النحو التالى : « أقر فلان بأنه قبض وتسلم من مملوكه فلان المسمى باطنه جميع المبلغ المعين ·· وهو كذا وكذا على حكم التنجيم · وصار ذلك بيده وقبضته وحوزه · فبحكم ذلك صار فلان حرا من أحرار المسلمين على ما تقدم ويؤرخ » « شمس الدين السرخسى : كتاب المسوط على مذهب أبى حنيفة النعمان ، مصر ١٣٢٤ هـ ، جـ٥ ، ص ١٠٨ ـ ١٣٢ » · وبذلك كانت طريقة المكاتبة أو الكتابة هى الوسيلة التى يمكن للجارية أو العبد أن يشترى بها نفسه من سيده بمال يكتسبه · وأجمع جمهور الفقهاء على أنه اذا قال السيد

لعبده أو أمته قد كاتبتك على ألف درهم فاذا أديتها فأنت حر ، فاذا أداها أو أدتها كان سرا وكانت حرة • كما اتفقوا أيضا على أن العبد أو الجارية يخرج كل واحد منهما من الرق اذا أدى الكتابة أو المكاتبة • بينما اختلفوا اذا عجز العبد أو الجارية عن أداء البعض وأدى أو أدت البعض • فقال أغلبهم هو عبد ما بقى عليه من كتابته شيء وانه يظل فى الرق اذا عجز عن البعض استناد الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « أيما عبد كاتب على مائة أوقيـة فأداهـا الا عشرة أواقى فهو عبد وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأداها الا عشرة فهو عبد » « ابن رشد : بداية المجتهد ، جـ٢ ، ص ٣١١ ـ ٣١٥ » •

وتجدر الاشارة الى أن فقهاء المسلمين قد أجمعوا على أن مكاتبة العبد مستحبة • وللامام أحمد بن حنبل فى رواية أنها واجبة متى دعى العبد سيده اليها على قـدر قيمته أو أكثر ، وأن للعبد أو الجارية الاتجار للحصول على ما يدفع من مال لسيده ، وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء • كما اشترط الفقهاء أن تراعى حال الرقيق عند المكاتبة ، كما أنهم يرون أن أقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضروريا ، كذلك رغب الاسلام فى اعتاق الرقيق بدون مقابل ابتغاء وجه الله فقال تعالى فى سورة البلد « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » (١) المراد بالنجدين هنا : الطريقان ، أى طريق الخـير وطريق الشر • وأصـل النجد المكان المرتفع • فلا اقتحم العقبة (٢) الاقتحام الدخول فى أمر شديد : والعقبة : الطريق فى الجبل • وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة (٣) المسغبة : المجاعة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة (٤) المتربة : الفقر « حسن ابراهيم حسن : النظم الاسـلامية ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ » •

ومن المعروف أنه كان يترتب على العتق في الاسلام الولاء · بمعنى أن يصبح الشخص أو الجارية التى تم عتقه أو عتقها مولى لسيده السابق ، عليه أن يساعد مولاه ، كنوع من العرفان بجميلة ، ولقد أجمع العلماء على أن من أعتق عبده عن نفسه فان ولاءه له وانه يرثه اذا لم يكن له وارث وأنه عصبة له اذا كان هنالك ورثة لا يحيطون بالمال ، فاما كون الولاء للمعتق عن نفسه فان ذلك راجع الى ما ثبت من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث بريرة : « انما الولاء لمن أعتق » · وقد اختلف جمهور الفقهاء في حالة العتق نيابة عن الغير ، فقال مالك الولاء للمعتق عنه لا الذى باشر العتق ، وقال أبو حنيفة والشافعى ان أعتقه عن علم المعتق عنه فالولاء للمعتق عنه ، وان أعتقه عن غير علمه فالولاء لمباشر العتق ·عمدة الحنفية والشافعية ظاهر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولاء لمن أعتق ، وقوله عليه الصلاة والسلام : الولاء لحمة كلحمة النسب · « ابن رشد : بداية المجتهد ، جـ٢ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤ » ·

وفى العصر المملوكى فان ظاهرة المعتق والمولى واضحة أشد الوضوح فيما يتعلق بالرقيق من الرجال أكثر منها فى النساء ، ولم نسمع عن الموالى أنهم كانوا أقل مرتبة من معتقيهم ، أو أن أحدا من السلاطين أو الأمراء رفض مثلا أن يزوج ابنته لأحد من مواليه هؤلاء · كذلك لم نسمع عن التفريق فى المعاملة بين الموالى وسادتهم من المماليك · وكما كان شائعا فى العصر الأموى ، كما لم نسمع عن فرض جزية على الموالى بعد اسلامهم ، أو حرمانهم من المناصب « عن ذلك انظر ما كان سائدا فى العصر الأموى فى كتاب النظم الاسلامية ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ » ·

والحقيقة أن الاسلام قد عنى بالجوارى بوجه عام والرقيق بوجه خاص عناية واضحة ، فقال تعالى يطيب خاطرهم ، ويفتح الأمل فى المغفرة لهم وحسن الجزاء : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم

من الأسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » « سورة الأنفال ، آية ٧٠ » · كذلك جرت العادة أنه اذا تزوج رجل حر من أمة بغير اذن مولاها فيكون الزواج ملغى ، لأن المولى هو المسئول عنها · وان كان مثل هذا الزواج يعتبر فى تقديرنا احدى الوسائل للعتق · اذ غالبا ما كان السيد يعتقها بعد العقد ، فيكون التحرير امضاء للزواج واجازة له ·

ومن تأمل فى الشريعة الاسلامية رأى فيها ما يدل على شدة الرغبة فى تخفيف الحدود والعقوبات التى تصيب الأرقاء بوجه عام والجوارى بوجه خاص ، من ذلك قول الله تبارك وتعالى فى سورة النساء يبين لنا مدى التخفيف عليهن فى قوله : « فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » وهذا خير دليل على مدى العناية بتلك الطائفة المستضعفة · وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يوصى الناس بالجوارى فى مرضه الأخير فيقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وكانت هذه آخر كلمة نطق بها صلى الله عليه وسلم قبل وفاته · « أحمد شفيق : الرق فى الاسلام ، ص ٦٨ ـ ٦٩ » · كما تظهر عناية الاسلام بالرقيق وأنها وصلت أقصى درجات الشفقة والرحمة من قول ابن عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » ، وليس معنى هذا ألا يضرب السيد عبده أو جاريته ، لكن أجمع العلماء على أنه يجوز له أن يؤدبهما للتربية وألا يمثل بهما ، ولكن هناك حالة يجوز فيها ضرب العبد أو الجارية ، اذا قصرا فى أداء الواجبات الدينية ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اضرب عبدك اذا عصى الله واعف عنه اذا عصاك » · فهلا ترى فى ذلك دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على أن الشريعة الاسلامية لا تحث فقط على معاملة الجارية بالحسنى وتأمر أيضا بتهذيبها وتأديبها كلما كان ذلك ضروريا وواجبا « أحمد شفيق :

نفس المرجع ، ص ٧٣ ــ ٧٦ » • كذلك جاء فى نصوص الشرع الشريف أحكام أخرى ساعدت على عتق الجوارى ، مثال ذلك اذا صارت الجارية ملكا لشخص تجمعها واياه روابط القرابة والنسب سواء كان فى الأصول أو من الفروع لأية درجة كانت ، فانه يتم عتقها حتما • واذا هربت الجارية من بلاد أجنبية وجاءت الى دار الاسلام وأسلمت نالت حريتها ، بل اذا مزح السيد بعتق جاريته تحتم عليه عتقها ، ولو لم تقبل الجارية نيل حريتها ، فانها تصير حرة رغما عن رفضها الحرية • ومتى طعنت الجارية فى السن أو أصابتها عاهة من العاهات ، تحتم أن تعفى من كل الأعمال اذا كانت قد رفضت الحرية بعد أن عرضت عليها ، ولم تكن تشتغل الا بالعناية بأولاد سيدها ، فاذا لم يتيسر لها بعد العتق كسب القوت لسبب من الأسباب تحتم على سيدها أن يقوم بنفقتها سواء أكان ذلك فى حياته أم بعد مماته ، ومثال ذلك ما نسمعه سنة ٨٠٠ هـ أيام السلطان برقوق عن الأمير قلمطاوى العثمانى الدوادار الكبير والذى أوصى قبل موته بثلث ثروته لمماليكه المعتقين وجواريه العتقاء ، وكانت تركته تقدر بحوالى أربعة ملايين دينار ، وقام الأوصياء ببيع تركته واستمروا مدة عام يبيعونها لتنفيذ وصيته هذه • « ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٤٧٥ ــ ٤٧٦ » • وما تشير اليه مصادر العصر المملوكى من تخصيص رواتب لهؤلاء الجوارى لدى السلاطين المماليك « المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٤٨ ــ ٧٤٩ » • وللاسلام عدا ما ذكرنا وسائل شتى للعناية بهن وتحريرهن ، فقد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب ، وأن يشترى الحاكم من مال الصدقة الرقيق لعتقهم وتحريرهن « حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ٣٦٦ » •

كذلك كان للمولى أن يكره أمته على الزواج بمن يريد ، لأن نتاجها لمولاها ، فهو انما يعقد على ملك نفسه بتزويجها ، وله ولاية

العقد على ملك نفسه بغير رضاها في شريعة أبي حنيفة النعمان وليس له مثل هذا الحق عند الامام الشافعي • أما اذا تزوج رجل امرأة على أنها حرة ، ثم علم بعد ذلك أنها جارية قد أذن لها مولاها بذلك فهي امرأته ، ان شاء أمسك وان شاء طلق ، لأن ظهور رقها نوع من أنواع العيب ، غير أن ما ولد له منها فهو حر • أما اذا كان الزواج تم بدون تصريح المولى فله أن يستردها ويعقرها • « جبور عبد النور : نفسه ، ص ١١٨ » •

وبذلك اذا ألقينا نظرة شاملة من حيث موقف الشرع في الجوارى ، يتضح لنا أن أصحاب المذاهب الفقهية والمتشرعون قد وضعوا القواعد والقوانين التى تنظم حياة هؤلاء الجوارى ، وأحوالهن الشخصية ، وكل ما يعود اليهن من رق وعتق وزواج وطلاق • كذلك كفلت هذه التشريعات لهن الكثير من الأمل في المستقبل المشرق ، فضلا عن أنها كانت تدعو السيد اما بالترغيب أو الترهيب الى أن يكون رحيما وعادلا نحوهن ، وألا يثقل عليهن بالأعمال ، وألا يحزنهن ، وأن يجعلهن يشاركنه طعامه وشرابه ، كما يجب ألا يسىء اليهن سواء بالضرب أو الاهانة بالألفاظ الجارحة • وكما سوى الاسلام بين الجوارى وأسيادهن في الطعام والشراب والملبس فانه سوى بينهن وبينهم في التعليم والتهذيب وفي معظم الحقوق المدنية ، اللهم الا في الولاية ، وحذر من اساءة معاملتهن ؛ بحيث كان من حق الفقهاء أن يحكموا بتحرير الجوارى اذا ثبت أن أسيادهن يعاملنهن معاملة قاسية • وقد جاء في الشريعة الاسلامية عتق الرقيق ومنهن الجوارى في حالات عدة : كالتكفير عن ذنب ، أو التكفير عن يمين حنث فيها السيد ، أو وفاء لنذر ، أو تقربا الى الله تعالى والتماس المثوبة منه • كما اعتبر الاسلام الرق عارضا ، ولذا عمل على مساعدة الجوارى والعبيد على استرداد حريتهم ، فقال الله تعالى في كتابه العزيز : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان

علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » « سورة النور ، آية ٣٣ » ٠

كما نجد في الاسلام ميلا واضحا يرمى الى الحد من نظام الرقيق بوجه عام والجوارى بوجه خاص ومن شدة هذا النظام وما قد يترتب عليه من آثار فى حياة الناس يتضح ذلك من قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخور » ٠ « حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ٣٦١ » ٠

كذلك يبدو لنا أن الناس فى ذلك العصر أدركوا ما لهؤلاء الجوارى من دور في حياتهم الخاصة والعامة ، وما يقمن به من خدمات فى الميادين والمجالات المختلفة التى سبقت الاشارة اليها وسوف نشير الى بعضها فى الصفحات والسطور التالية ، لذا لم يبخلوا عليهن بكل ما هو غال أو ثمين وكما سبق أن أشرنا فى حديثنا عن الحياة العائلية ٠ بل أكثر من هذا أن السلاطين وكبار الأمراء والخيرين من الناس الذين شيدوا الكثير والكثير من المنشآت الخيرية والاجتماعية ، لكى يستفيد منها أهل القاهرة جميعا وغيرهم من الوافدين عليها ، أوضحوا فى عبارات لا يرقى اليها الشك مدى هذا الحرص الخاص بالجوارى ٠ مثال ذلك ما جاء فى الوثيقة الخاصة بالبيمارستان المنصورى الذى أوقفه السلطان المنصور قلاون لعلاج المرضى بمختلف طبقاتهم ، حيث أنه « أوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والجندى والأمير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، الذكور والاناث ٠٠٠٠٠ » « ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د ٠ محمد محمد أمين ، جـ١ ، ص ٣٠١ » ٠

وان كان هذا لا يمنع من حدوث بعض الخروج عن هـــذه القاعدة ، من ذلك ما تشير اليه بعض المصادر المعاصرة من « أن السلطان المنصور حاجى كان شـــديد البأس على حاشيته خصوصا جواريه ، وكان يقتلهن قتلا فظيعا لشدة خلقه وغلبة السوداء عليه من الحبس والقهر ، رحمة الله ٠٠ » « ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ٢ ، ص ٢٩٩ فى حوادث سنة ٨١٤ هـ » ٠٠

وكما قلنا فان هذه الحالة تعتبر شذوذا عن القاعدة العامة ، والدليل على ذلك ما يذكره ابن تغرى بردى فى حديثه عن هذا الملك من قول « ومات الملك المنصور هذا عن بضع وأربعين سنة وقد تعطلت حركته وبطلت يداه ورجلاه عدة سنين قبل موته ، وكان ما حصل له من الاسترخاء « الشلل » من جهة جواريه على ما قيل : انهم أطعموه شيئا بطلت حركته منه وذلك لسوء خلقه وظلمه ٠ حدثنى غير واحد من حواشى الملك الظاهر برقوق ممن كان يباشر أمر الملك المنصور المذكور قال : كان اذا ضرب أحدا من جواريه يتجاوز ضربه لهن الخمسمائة عصاة ، فكان الملك الظاهر لما يسمع صياحهن يرسل يشفع فيهن فلا يمكنه المخالفة فيطلق المضروبة ، وعنده فى نفسه منها كمين ، كونه ما اشتفى فيها وكان له جوقة مغان كاملة من الجوارى ، كما كانت عادة الملوك والأمراء تلك الأيام نحـــو خمس عشرة واحدة يعرفن من بعده بمغـــانى المنصور ، وكن خدمن عند الوالد بعد موته ، فلما صـــار الملك الظاهر برقوق يشفع فى الجوارى لما يسمع صياحهن بقى المنصور اذا ضرب واحدة من جواريه يأمر مغانيه أن يزفوا بالدفوف وتزعق المواصيل فتصيح الجارية المضروبة فلا يسمعها الملك الظاهر ولا غيره ، ففطن بذلك حريم الملك الظاهر وأعلموه الخبر ، وقلن له اذا سمع السلطان زف المغانى فى غير وقت المغنى فيعلم السلطان أنه يضرب جواريه وخدمه ، فعلم الظاهر ذلك فصار كلما سمع المغانى تزف

أرسل فى الحال بالشفاعة ، وله من ذلك أشياء كثيرة » « ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١١ ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ » · وهذه العبارة تدل دلالة واضحة على مدى الاستياء من ضرب الجوارى ومعاقبتهن ، ودليل آخر على عظم مكانتهن وهو ما تشير اليه المصادر المعاصرة من وجود مسئول عن الجوارى فى القصر السلطانى فى القلعة أطلق عليه « معلم المماليك والجوارى » ، وكان لا يلى هذه الوظيفة الا كل من يثق السلطان فيه ثقة شديدة « ابن الصيرفى ، أنباء الهصر ، ص ٣٠٣ » · بل أكثر من هـــذا ما نسمعه لدى بعض الفقهاء المعاصرين ، الذين أوصوا السيد بجواريه ، وضرورة الانفاق عليهن وكسوتهن من نفس مستوى نفقة السيد أو أكثر منه حتى لو قتر على نفسه تقتيرا خارجا عن عادة أمثاله · « أحمد شفيق بك : الرق فى الاسلام ، ص ٧٠ ، نقلا عن النووى » ·

وأخيرا يأتى حرص ســلاطين الممــاليك واهتمامهم بالواجهة الدينية لحكمهم باعتبارهم حماة الاسلام والمسلمين فى ذلك العصر ، بل وحماة الشريعة والمسئولين عن تطبيقها وراء اهتمامهم بالرقيق والجوارى بوجه خاص ، وتقصى أحوال بعض الجوارى وبخاصة لدى أهل الذمة ؛ فهم لم يمانعوا فى أن يقتنى أهل الذمة من مسيحيين ويهود الجوارى بشرط ألا يكن مسلمات · ويتضح هذا الموقف جليا مما رواه ابن الصيرفى فى حديثه عن سنة ٨٨٦ هـ أيام السلطان الأشرف قايتباى من أنه فى شهر ربيع الأول « انهى الى مولانا السلطان — نصره الله — أن شخصا باع جارية حبشية ليهودى فطلبه وطلب الشهود فصعدوا بين يديه « أى الى القلعة مقر حكمه » البائع والمشترى والجارية ، فقال نصره الله للبائع : « أنت بعت هــذه الجارية لليهودى ؟ » قال « نعم » وقال لليهودى : « أنت اشتريت ؟ » فقال : « نعم » وقال للشهود : « أنتم شهدتم عليهما ؟ » فقالوا : نعم ، لأنها أقرت أنها يهودية « فقال السلطان للبائع : »

أنا أعرفك أنك جلاب « وأمر الشهود والبائع بالتوجه لحال سبيلهم ثم أطلق اليهودى فى الحال وسمح له باقتناء الجارية « ابن الصيرفى : أنباء الهصر ، ص ٥١٨ » ٠

الجوارى وفنون الغناء والطرب :

فى العصر المملوكى ، شهد المجتمع المصرى بوجه عام ومجتمع القاهرة بوجه خاص ازدهار فنون الطرب والغناء وضروب اللهو نتيجة لذلك الزواج الاقتصادى الذى عم البلاد معظم ذلك العصر ، من جراء مرور تجارة الشرق بها ، بحيث انعكست آثاره واضحة فى اقبال الناس حكاما ومحكومين على هذه الفنون والملاهى ومتع الحياة ولذاتها ٠ ولم يدخر سلاطين وأمراء المماليك ـ بصفتهم الطبقة الحاكمة ـ وسعا فى الاقبال على المطربين والمطربات وتشييد المغانيات وهى قاعات خصصت لسماع الغناء والطرب ، والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى ٠ « محمد قنديل البقلى : الطرب فى العصر المملوكى ، ص ٤٣ ـ ٤٤ » ٠ باعتبارهم قد ورثوا محبة الفنون والغناء عن أسلافهم الفاطميين والأيوبيين « محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى ، جـ١ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٥ » ٠

كما كان الغناء والشراب من أشهى ضروب اللهو فى حياة المماليك ، وكانت دنياهم تموج بالطرب والعطاء واقتناص اللذائذ والشهوات والاسراف فيها ليلا ونهارا ٠ ولقد كان لهذا التيار الجارف أثره فى نفوسهم ، حيث أصبح الغناء ضرورة من ضرورات حياتهم لا يعيشون الا به ، ولا يرون الحيـــاة سهلة جميلة الا على ضرب الأعواد ونقر الدفوف وترنيم الأشعار وألحان الغناء ٠ ولقد بلغ من امتزاج الغناء بنفوسهم أن كان بعضـــهم يتعشقه ، ولا يطيق العشق بدونه « النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ » ٠ وربما كان الغناء تنفيسا واشباعا لميول ورغبات

جسدية بعثتها فيهم الطمأنينة والرخاء والترف واتساع الدولة ، واشراق نور الحضارة فى نواحيها والاسراف فى اللهو والانحدار فيه كان نتيجة حتمية لقوم أسسوا ملكهم بالسيف والرماح على مدى أكثر من قرنين ونصف من الزمان « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ٢٧ ـ ٣١ » .

وهنا يجب أن نشير الى أن المماليك فى حبهم للغناء واقبالهم عليه لم يكونوا دخلاء ولا مرتجلين ، بل كان منهم من يتقن العزف على آلاته الموسيقية ، ويفهم الغناء فهما حسنا صحيحا ، ويقرب أربابه ، مثال ذلك ما يرويه ابن اياس عن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاون من أنه كان يحب اللهو والطرب ويميل الى شرب الراح ، وحب القيان من النساء الملاح ، وكان يميل الى سماع الآلات ، ويقرب المغانى ، ويحب أرباب الفن من المغانى قاطبة . « بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٥٧٧ ـ ٥٧٩ » . كما كان السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد محبا للهو مقبلا على النساء والمطربين ، فبنى قاعة الدهيشة بالقلعة ، وجلس فيها وبين يديه جواريه وخدمه وحرمه ، واتخذ هذه القاعة مكانا للهو وسماع الغناء والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى ، وعندما أنجب السلطان المذكور ، ولدا ذكرا من المغنية السمراء « اتفاق » عمل لها فيها حفلا بلغ الغاية « ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ، ص ٩٦ » . كما تشير المصادر المعاصرة الى حب السلطان الأشرف شعبان بن الناصر محمد لهذه الفنون وتشجيعه لهـــا بحيث أنه « مشى سوق أرباب الكمالات فى زمانه فى كل علم وفن ، ونفقت فى أيامه البضائع الكاسدة من الفنون والملح ، وقصدته أربابها من الأقطار ، وهو لا يكل من الاحسان اليهم ، فى شىء يريده وشىء لا يريده ، حتى كلمه بعض خواصه فى ذلك فقال : أفعل هذا لئلا

تموت الفنون فى دولتى وأيامى » « المصـدر السابق ، جـ١١ ، ص ٨٢ » ٠

كذلك كان السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى يقرب أرباب الفنون ، وكان أرباب الفنون يتباهون فى أيامه بفنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته ، وكان يتقن التغنى وفن الموسيقى ، وله أشياء كثيرة فى الفن دائرة بين المغنين ٠ « محمد قنديل البقلى : نفس المرجع ، ص ٤٩ » ٠ كما يذكر لنا الشريفى مترجم الشـاهنامة مدى عناية السلطان قانصوه الغورى بالموسيقى ، واستصحابه كبار الموسيقيين وأن له موشحات وألحان كان أرباب المغانى يتغنون بها طوال عصره « عبد الوهـاب عزام : مجالس السلطان الغورى ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ١٧ ، ٣٨ » ٠ بل ويحدثنا ابن تغرى بردى أن كثيرا من أبناء السلاطين وذريتهم قد كان لهم دراية كبيرة بفنون الغناء والطرب ، وأنه عندما أمر السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٢٥ هـ بنزولهم من القلعة وعدم اقامتهم بها ، وأن يقيموا بالقاهرة ، أخذ بعضهم يتعانى الغناء والطرب ، وبعضهم اشترى جوارى يحسن أنواع الطرب من آلات المساميع وصار يتردد الى الناس بهن « المنهل الصافى ، جـ١ ، ص ٢٨١ » ٠

ومما لا شك فيه أن طبيعة الشعب المصرى كان لها أثرها فى ازدهار هذه الفنون ، فاسمع معى الى المقريزى وهو معاصر يتحدث عن ذلك الشعب بقوله : « وأما أخلاقهم فالغالب عليهـا اتبـاع الشهوات والانهماك فى الملذات ، والاشتغال بالترهات ٠٠٠ لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر ، وخصوا بالافراط فيها دون جميع الأمم ، حتى صار أمرهم ذلك مشهورا ، والمثل بهم مضروبا ٠٠ » « الخطط ، جـ١ ، ص ٤٧ » ٠ كما ذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار مصر فى فى النصف الأول من القرن الرابـع عشر أن أهـل مصر « ذوو طرب وسرور

ولهو ٠٠ » « الرحلة ، ص ٣٢ » ٠ وكان للرقص فى نفوس المصريين أيام المماليك أثر أى أثر ، يتعشقونه ويعرفون ضروبه ، ويميزون بين خلوه ورديئه ٠ ولم يكن عشق المصريين للرقص عشقا ساذجا بل كان عشقا مبنيا على أسس من الفهم الدارس والذوق الموروث ٠ « محمد قنديل البقلى : نفس المرجع ، ص ١٤ » ٠

وعلى هذا الأساس فلا غرابة أن نجد أن هذا العصر وهو العصر المملوكى قد سادته موجة من اقبال السلاطين فى شغف ونهم على السماع بمختلف ضروبه غناء وموسيقى ، وعلى ما يتصل بالغناء من عزف ورقص ٠ والناس على دين ملوكهم ، فما بالك وقد كان حبهم للهو والمرح يجرى فى عروقهم ـ فحين كان ذلك الاقبال من السلاطين والأمراء المماليك على الغناء والموسيقى ، كانت تلك المحبة للفنون بضروبها المختلفة ، وكما كان ذلك من السلاطين والأمراء ، كان مثله من الناس ، من اقبال على السماع للمغنين والموسيقيين والتمتع بالرقص من الراقصات ، وكما كان من السلاطين والأمراء من يتطرب بين الحين والحين ويحذق آلة من الآلات يعزف عليها ويضرب بها كان الناس « المرجع السابق نفسه ، ص ٩ » ٠

والغناء فى العصر المملـوكى لم يكن ضربا من ضروب اللهو والتسلية والمرح فحسب ، بل هو جزء من حياة الناس المعنوية والمادية لا تستطيع الحياة أن تستغنى عنه ، كما أنه فن له أصول وفلسفات لا تقل عن فلسفات الشعر وأصوله ٠ وللمغنين فى ذلك العصر أبحاث فى أصول هذا الفن وقواعده يستطيع الباحث فى فن الموسيقى أن يقف منها على خصائص ممتازة للغناء ، وهو ما سوف نشير اليه فى السطور التالية ٠ هذا الى جانب أن الغناء كان صورة واضـحة لحياة الناس الاجتماعية والسياسـية والعقلية فى ذلك العصر ٠ « فايد العمروسى : الجوارى المغنيات ، ص ٣٢ ٠

وشهد العصر المملوكي في مصر نزعة خاصـــة فى فن اللهو والطرب ، حيث كان الناس جميعا يؤثرون المغنية على المغنى وكأنهم كانوا متأثرين بقول الثعالبى فى كتـــابه « تحفة الأرواح وموائد السرور والأفراح » : ان غناء الجوارى ذوات الحسن والدلال له موقع أحسن من موقع غناء الرجال وان كان أجود منه · أو يبدو أنهم كانوا قد آمنوا بمقولة الأصفهانى بأن « نعيم الدنيا أن تسمع الغناء من فم تشتهى تقبيله » حيث أن السامع لاشك مجذوب فى ســماعه للجوارى بشيئين هما حسن الصوت بالاضــافة الى الجمال وحسن الهيئة · وهذا يفسر لنا ما كان لهؤلاء الجوارى المغنيات والعازفات من حظوة لدى سلاطين المماليك أولا ، ثم أمرائهم ثانيا ، ثم عامة الناس من بعدهم ، فالنــاس على دين ملوكهـــم كمـا يقولون ، فاذا ما جنح أولو الأمر الى شيء فيه متعة وترويح عن النفس وفيه راحة للقلوب والخواطر ، ولم يكن معــه ما يشوبه من خروج عن شرع سماوى أو سنة مألوفة أو عادة متبعة لم يتخلف الشعب عن السير فى ركاب الأمراء والسلاطين ، يتبعونهم فى كل مايفعلون ، كل على قدره تباهيا وافتخارا · « محمد قنديل البقلى : نفسه ، ص ١٠٠ » ·

لذا لم يكن مستغربا أن يتزوج السلاطين من الجوارى المغانى، وذلك بعد عتق الجارية منهن ، والمصادر المعاصرة حافلة بأســماء الكثيرات من هؤلاء الجوارى فبياض مثــلا وهى جـارية اشــتهرت بالعزف على العود ، كانت تجيد الغنـــاء ، وشهرتها بين الناس « قومة » ، وكان للناس بها اجتماعات فى مجالس أنسهم ، فلما سمع بها السلطان الناصر محمد طلبها واختص بها ، وحظيت عنده « المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قســم٣ ، ص ٥٩٣ ــ ٥٩٤ » · و « اتفاق » العوادة كانت قد دخلت بيت السلطان الناصر محمد

فحظيت عند ابنه الصالح اسماعيل ، فولدت له ولدا ذكرا فاختصها بنفيس الجواهر « ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص ٨٣ » . وبعد وفاة الملك الصالح ، باتت اتفاق عند أخيه الملك الكامل من أول ليلة لسلطنته ، لما كان فى نفسه منها أيام أخيه « ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ، ص ١٥٠ » ، وبعد مقتل الملك الكامل وتولية أخيه المظفر حاجي مالبث أن طلبهـا ، فطلعت الى القلعـة بجواريها وتزوجها السلطان وفرش تحت رجليها ستون شقة أطلس ونثر عليها الذهب ، ثم ضربت بعودها وغنت فأنعم السلطان عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات ، ثمنها أربعة آلاف دينار « المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٢١ ، ابن تغرى بردى : النجوم ؛ جـ١٠ ، ص ١٥٣ ــ ١٥٤ » . كما أعطاها أضعاف ما كان يعطيها أخواه ، وهام بها فأفرط « ابن حجر : الدرر الكامنـة ، جـ١ ، ص ٨٤ » . ونسمع كذلك عن « شهددار » ، وكانت بديعـة فى الحسن والجمال ، تزوجها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان أحـد كبار الأمراء المماليك ، وشغلته عن تدبير أحوال المملكة ، وكانت تحسن الضرب بالسبع آلات المطربة « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٢٢٠ » . وكذلك نسمع عن « أصيل القلعية » وكانت من أعيان مغاني البلد ، رأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والاحسان لها « المصـــدر الســابق نفسـه ، جـ٣ ، ص ٣١٢ ، أحمد تيمور : الموسيقى والغناء عند العرب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٦٦ » . وغيرها وغيرها من الجوارى المغـانى اللاتى ملأت شهرتهن الآفاق فى ذلك العصر ، بحيث لم يكن مستغربا أن يقتنى القادر من الناس من الجوارى المغانى ما يشـــاء فى داره ، أو يخص نفسه بســـماع مغنية حاذقة منهن ويؤثرها على غيرها « نبيل عبد العزيز : الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٦٧ » .

ولقد كان من ضمن العادات المألوفة أن يقتني الملوك ورؤساء الناس بعض الجوارى الحسان ، ذوات الدلال ، واقتضى ذلك أن يمتلك كل واحد عنده فى داره جوقة كاملة من المغاني . ويبدو أن عدد كل جوقة من هذه الجوقات كان يتراوح مابين خمس عشرة جارية الى عشر جوارى . فالمؤرخ ابن تغرى بردى في حديثه عن السلطان المنصور حاجى بن الناصر محمد بن قلاون يقول : « وكان له جوقة مغان كاملة من الجوارى ، كما كانت عادة الملوك والأمراء تلك الايام نحو خمس عشرة واحدة ، يعرفن من بعده بمغاني المنصور » « النجوم ، جـ١١ ، ص ٣٨٠ » أما المؤرخ ابن إياس ففى حديثه عن نفس السلطان يقول : « وكان عنده جوقة مغانى نحو عشرة جوار ، يزفون بالطارات عند الصباح ، وعند المساء ، وكانت هذه عادة رؤساء مصر . يقتنوا عندهم الجوارى المغانى ، وآخر من كان يفعل ذلك الأمير جمال الدين محمود الاستادار ، ثم بطل ذلكمن مصر مع جملة مابطل منمحاسنعيشة الأكابر ، ولأجل ذلك اتخذوا الأغانيات التى تشرف على الدور ، وجعلوها برسم الجوار المغانى ، التى يزفون عند الصباح وعند المساء . ولما مات الملك المنصور ، استمرت جواريه المغانى يعملون الأفراح للناس ، وكانوا يعرفون بجوقة المنصور » « بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٥٩٣ » . ولم يبال الشراة بما يدفعونه فيهن ولهن من أموال عظيمة ، « وكل ذلك وبال على صاحبه » « السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٨ » . وهو بهذا يشير الى ما نتج عن سوء الأحوال الاقتصادية من تغير فى عادات الناس والذى ظهر واضحا منذ أوائل القرن الخامس عشر للميلاد ، وان كنا نسمع من المؤرخ ابن شاهين وقد كان معاصرا للسلطانين جقمق وبرسباى ما يشير الى وجود هؤلاء الجوارى لكن ربما بصورة أقل حيث يذكر

« وأما بقية الجوارى التى بالآدر الشريفة ـ يقصد قصر السلطان ـ فهي جملة مستكثرة من جميع الأجناس » مما يرجح القول بأن فرق الجوارى المغانى قد قل استخدامها فقط عند بعض الناس ، وربما عند بعض الأعيان « زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ » . كما يجب أن نشير أيضـا الى أنه اذا كانت هذه الجوق من المغانى قد قل استخدامها ، فليس معنى هذا أنه لم تعد هنـاك أية جوقات من هذا النوع ، فيجب ألا ننسى المصدر الأساسى وهو ما سوف نشير اليه بعد قليل وهو « ضامنات المغانى » فقد كان لهن جوق خاصة تقوم باحياء الحفلات المختلفـة لدى كافة الناس ، وتشـارك في المناسبات المختلفة ، وليس أدل على ذلك مما يشير اليه ابن اياس فى ذكره لحوادث سنة ٨٦٠ هـ أيام السلطان الأشرف اينال من أن ناظـر الخاص السلطاني وهو القاضى يوسف قد حصـل له توعك في جسده ثم شفى ، وطلع الى القلعة فأخلع عليه السلطان فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وزينت له القاهرة من داره الى القلعـة ، وقعدت له جوق المغانى على الدكاكين ، وتخلق النـاس بالزعفران ،وأوقدوا لهالشموع علىالدكاكين، وكان لهيوممشهود. هذا الى جانب ما يذكره فى حوادث سـنة ٩٢٢ هـ أيام السلطان قانصوه الغورى فى وصفه عرسا لأحد أمراء المماليك ، فقد كان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغانى خمسـة وعشرون ريسة ، وهذا دليل على كثرة هذا الجوق من المغانى التى كانت عند ضامنات المغانى هؤلاء . « ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٢ ، ص ٣٣٥ ، جـ٥ ، ص ٩ » .

ومن الملاحظ أن الجوارى المغانى لم يكن يتم الحصول عليهن مباشرة من أسواق الرقيق ، لكن كان يتم الحصول عليهن بالاضافة الى المهاداة وكما سبقت الاشارة بذلك من قبل ضامنات المغانى ،

اللاتى كن يشترين الجوارى اللاتى يتمتعن بصفات معينة ، مثل الظرف وجمال الصوت وحسن الأداء ، وربما دخل الجمال كعنصر مرجح كذلك ، وغالبا ما كان يتم اختيار هؤلاء الجوارى صغيرات ، ويعهد بهن الى نساء ماهرات فى تربية أمثالهن فى الغالب واقفات على أنـواع الغواية وأسرار الفنون الجميلة ، ولا يفارقن معلماتهن الا بعد أن يحذقن جميع ما يحتجن اليه فى حياتهن المقبلة بعد ذلك « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ١٠٠ » . هذا الى جانب ما تشير اليه كثير من الكتب المعاصرة الى أنه كان ثمة معلمات ومعلمون يقمن ويقومون على تدريب الجوارى على الغنـاء ، وأنه على أيدى هؤلاء نشأت كثرة من الجوارى المغنيات وحذقن الغنـاء وأجدن فيه . مثال ذلك ما سبقت الاشارة اليه فى الحديث عن المغنية « اتفاق » حظية السلطان الصالح اسماعيل وشعبان ، فقد كانت جارية سوداء حالكة السواد اشترتها ضامنة المغانى بدون الأربعمائة درهم من ضامنة المغانى بمدينة بلبيس ، وعلمتها الضرب بالعود على الأستاذ عبد على العواد فمهرت فيه ، وكانت حسنة الصوت ، جيدة الغناء ، فقدمتها لبيت السلطان الناصر محمد بن قلاون فاشتهرت فيه حتى شغف بها الملك الصالح اسماعيل وتزوج بها . وما نشك فى أن جمالها وحده لم يكن هو الحافز على ذلك العشق ، بل ما نشك فى أن غناءها وحلاوة صوتها ثم ما اشتهرت به من جودة ضربها على العود ، كان لهذا كله نصيب موفور فى تســابق ثلاثة اخوة من السلاطين هم الصالح اســماعيل وشعبان وحاجى على طلبهــا . « محمد قنديل البقلى : نفس المرجع ، ص ٤٤ ، ٤٦ » .

ومما لا شك فيه أن الجوارى المغانى وضامنــات المغـانى تنافسن جميعا على تلقى فنون الطرب والغنـاء على أيدى كبــار الموسيقيين فى ذلك العصر ، والذين لقوا من سلاطين المماليك كل

احترام وتقدير وتخرج على أيديهم عدد كبير من شهيرات ذلك العصر . يذكر منهم المؤرخ الشهير ابن حجر محمد بن محمد ، شمس الدين ابن السيوري والذى سماه ابن تغرى بردى فى النجوم جـ١١ ، ص ٢٢٠ بالسوري العماري نسبة الى عمار بن ياسر ، والذى انتهت اليه الرياســـة فى حسن الضرب بالعود . وكان عارفا بالموسيقى حسن الخط ، مليح العشرة ، وله اقطاع يعمل فى السنة ألف دينار، مات سنة ٧٨٣ هـ « ابن حجر : أبناء الغمر ، جـ١ ، ص ٢٥٢ » .

ويبدو أنه نتيجة لازدهار فنون الغناء والطرب أن تألق نجم كثير من كبار أهل هذه الفنون بدليل ما يذكره ابن الصيرفى فى سنة ٧٩٠ هـ عن وفيات تلك السنة من قول أنه مات فى شهر ربيع الأول من ذلك العــام خمس أنفس من أصحاب النغم والآلة الذين فقد هذا الأمر بموتهم ، ولم يخلف نظيرهم ، وهم : علم الدين سليمان المادح ابن يوسف ، وابراهيم بن الجمـــال المغنى وأخوه خليل المشبب ، وعلى بن الشاطر ، والمعلم اسماعيل الدحيجانى ، والذين أبدى أسفه الشديد لما لحق هذه الفنون من خسارة لموت أمثـــال هؤلاء « ابن الصيرفى : نزهــة النفوس ، جـ١ ، ١٦٩ » وما يذكره ابن اياس عن وفيات سنة ٨٦٢ هـ أيام السلطان الأشرف اينال من قول « توفى المغنى الأستاذ فى فن النشيد ، فريد عصره ، ووحيد دهره ناصر الدين محمد المازونى القاهرى ، وكان بارعا فى فن الغناء ، وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ، ومعرفة الفن ، ولم يجيء بعده من هو فى طبقته الى يومنا هذا » ، « بدائع الزهور ، جـ٢ ، ص ٣٤٦ » . كذلك ما يذكره ابن حجر عن كتيلة بن قرانغان أيام الناصر محمد بن قلاون كدليل على أن هؤلاء السلاطين كانوا يرسلون فى جلب كل من ذاعت شهرته فى فن من الفنــون من البلدان المجاورة ، فهو من ماردين ، فاستدعاه الناصر محمد « فكان

يلازم تعليم الجوارى ، فتخرج به كثير منهن ، وانتهى اليه حسن الطرب بالجنك العجمى ، وكان يسأل السلطان فى العود الى ماردين، فيقيم مرة ويرجع بطلب السلطان » « الدرر الكامنــــة ، ج٣ ، ص ٢٣٤ » • كذلك يذكر المقريزى من مشاهير القرن الخامس عشر الميلادى « الأستاذ ابراهيم بن باباى العواد ، انتهت اليه الرياسة فى ضرب العود ، وكان أبى النفس ، من ندماء السلطان ـ المؤيد شيخ ـ مقربا عنده » • « السلوك ، ج٤ ، قسم ١ ، ص ٤٧٦ » سما يؤكد لنا أن وجود الجوارى المغانى وكذلك ضامنات المغــانى تطلب وجود أعداد من كبار الفنانين لوضـــع الألحان التى كانت تشدو بها هؤلاء الجوارى ، وتدريبهن على الايقاع والعزف ، والذين وضعوا العديد من المؤلفات فى هذا المجال ، والتى مازالت أعمالهم فى حاجة الى المختصين للقيام بدراستها ونشرها ، نخص منهم بالذكر عمر بن خضر بن جعفر بن زاده الدشتى جمـــال الدين أبو سعيد الكردى المغنى ، والذى اجتهد حتى فاق فى الغناء ، ثم آل أمره الى أن قدم الشام فاختص به الأمير سيف الدين تنكر نائب السلطنة بها ، فقربه وصار يعلم الجوارى عنده ، وبلغ الملك الناصر محمد بن قلاون خبره فاستدعاه وأعطاه خبز حلقة « أى اقطاعا » ثم رتب له راتبا ، وصنف الكنز المطلوب فى الدوائر والضروب ، وهو مؤلف كما هو واضح من اسمه عن التلحين لشتى الآلات الموسيقية التى شاع استعمالهـــا فى ذلك العصر ، والتى سبق أن أشرنا اليها ، « ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ١٦٤ » •

ويلاحظ أيضا أن الجوارى المغنيات كما استأثرن بالحظوة فى مجـــال الطرب ، فان كثيرات منهن برعن فى العزف على آلاته المختلفة ، فهناك من أتقنت العزف على العود ، وهنــاك من آتقنت العزف على المزمار ، وهنـــاك ضاربة الدف الى غير ذلك من الآلات

الموسيقية ، والتى برع كثير وكثير من هؤلاء الجواري في استخدامها « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ص ٣ ، ٢٢٠ » ٠

وكان الرقص ينافس الغنـاء فى مجالس اللهو والسرور ، وخاصة رقص فتيات الجوارى ، اللاتى كن يتعلمن ضروبه على أيدى معلمين حذاق فى الفن ، ولكن فن الرقص مع هذا لم يقتصر فى ذلك العصر على النساء ، حيث وردت فى أخبار ذلك العصر شذرات تفيد أن بعض الرجال أجادوا فيه ، سـواء من الحكام أم المحكومين ، مثال ذلك ما حدث فى عهد السلطان قانصوه الغورى فى سنة ٩١٨هـ عندما نزل السلطان وتوجه نحو المقياس ، وجلس فى القصر الذي أنشأه هناك ، وكان معه جماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى قريب المغرب وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ومد هناك موائد حافلة ، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب آلات ٠ ثم ان شخصا مضحكا يقال له على باى ، قام فرقص ، ثم سحب الوالى كرتباى فرقصه ، ثم سحب أمير آخور ثانى وهو الأمير آقباي الطويل فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ٠ ونثروا بين يديه من أنواع الورود والزهـر والفاكهـة ومجـامع الحلوى ، فتخاطف ذلك المماليك « عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغورى ، ص ١٥ ـ ١٧ »٠

بل ومن هؤلاء الرجال الذين احترفوا الرقص وبرعوا فيه من لزم بيوت كبار القوم والسادة الأعيان ٠ وعن الحركات التى كانت تقوم بها الجوارى الراقصـات فى ذلك العصر ، فان أدب ذلك العصر يصور لنا احدى الراقصات بحركاتها السريعة التى تمد فيها صدرها وترفع رأسـها حينا ، ثم تعود فتنثنى وتتراجع ، وتلف تارة ، وتتلفت تارة أخرى ، حتى وكأنك أمام ضرب من الرقص قريب من الرقص الهندى الذى نشاهده فى أيامنا هذه ، والذي لم يبق منه عندنا سوى صـورته المعروفة بالرقص البلدي ، أو رقص البطن

« محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، جـ١ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٩ » • ويصور لنا أحد شعراء ذلك العصر وهو ابن أبي اليسر احدى الجوارى الراقصات بما يظهر لنا رشاقة خطو تلك الراقصة ، وخفتها التي تشبه خفة الفراشة ، بما يدل على أن الرقص كان حركة رشيقة دائبة ، وخطوات بالقدمين والساقين ، والتفاتا متناسقا بأجزاء الجسم ، كل هذا مع ايقاع الموسيقى « المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٩٠ » •

وفي وصف لصفي الدين الحلي لجوار يرقصن بالشراب نرى لمحات جديدة لهذا الفن في ذلك العصر ، فقد كان من عادة الراقصات أن يشددن أوساطهن بالزنانير ، وأنهن كن يتثنين بأعطافهن ويهززن باعجازهن ، كما كن يتخذن أحيانا زى الغلمان وهيئتهم ، وربما تخلف عن ذلك العصر أى عصر سلاطين المماليك مانراه أحيانا في بعض الراقصات « البلديات » في مصر حاليا من لبس ملابس الرجال والرقص فيها • كذلك من ملامح الصورة التي يرسمها لنا في شعره يتضح أنهن كن يستخدمن صنوجا من الخشب ، وكن يجدن الايقاع بها ، كما أنهن كن يجدن الايقاع بالأرجل وحركات الأيدى ودقات الصنوج ، فتأتى كلها متناسقة لا نشوز فيها ولا انحراف » نفس المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ » •

ولا يفوتنا أن نشير أن بعض هؤلاء الجوارى قد دربن على اللعب بخيال الظل ، فقد قال الوجيه المناوى يصف جارية تلعب بخيال الظل :

ارتنا خيال الظل والستر دونها ... فأبدت خيال الشمس خلف غمام
تلعب بالأشخاص من خلف سترها ... كما لعبت أطرافها بأنام

» الغزولى : مطالع البدور ، جـ١ ، ص ٢٦١ ، محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى ، جـ١ ، ص ٢٩٢ » ٠

وتجدر الاشارة كذلك الى أن الجوارى المغنيـــات فى ذلك العصر حظين فى المجتمع الذى عشن فيـــه ، وهو مجتمع القــاهرة آنذاك ، بمغريات ثلاث ٠ حسن أصواتهن ، وجمال أشكالهن ، ثم آدب فى فن القول ، شاركن به أدباء ذلك العصر ٠ وهكذا جمعت هؤلاء الجوارى المغنيات فى العصر المملوكى أسباب التأثير كله ، فأتين الحياة من أوســـع أبوابهــا ، وكانت لهن تلك المنزلة التى فضلتهن على المغنين من الرجال ٠ كما أسرفت هؤلاء المغنيات فى جذب الأفئدة اليهن بعد جذبهن الأنظار ، فلعبن بالأفئدة بعدما لعبن بالأبصــار والأســـماع ، فنراهن يتفنن فنونا مختلفة ، فيكتبن على آلاتهن التى يضربن بها ، ويعزفن عبارات منقوشة طريفة فى الهوى والعشق والغرام ٠ فيحكى لنـــا صاحب مطالع البدور من تلك العبارات التى كانت تنقش على الآلات ما نقشته احداهن ، وكانت تدعى « مزنة » على مضرابها ٠ « من نظر الى سوانا لم يصدق فى هوانا » ٠٠ ويقول ان راقصة كان اسمها « طوافر » كانت تكتب على عودها « رافق من ترافق ، وقارب من تصاحب » ٠ كما أن جارية وتدعى « ضوء الصباح » وكانت جارية مشهورة ، كتبت على عودها بالذهب « من خالفنا ليس منا » ٠ « محمد قنديل البقلى : نفس المرجع ، ص ٧٠ ـ ٧١ » ٠

وجدير بالذكر أن كل ضامنة من ضامنات المغانى كانت تدفع عن نفســـها وعن كل جـــارية فى حوزتها من الجوارى المغانى أو الراقصات مبلغا من المال « بحيث لا تستطيع واحدة منهن أن تضرب بدف فى عرس أو ختان ، أو نحو ذلك ، الا باطلاق ـ أى تصريح بمزاولة المهنة ـ وعلى كل اطلاق فريضة مقررة من مال ،

وكان على كل مغنية مال مقرر تحمله الى الضامنــة ، وفى كل ليلة يدور على بيوت المغانى جماعة من جهة الضامنة ، لمعرفة من باتت منهن خــارج بيتهــا » « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قســـم٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ » ٠ وعن ضمان المغانى هذا يقول المؤرخ ابن حجر العسقلانى « وكان ضمان المغانى من القبائح الشنيعة ، ما كان أحد يقدر أن يعمل عرسا حتى يغرم قدر عشرين الى ثلاثين مثقال ذهب ، وكانوا بمصر والقاهرة لا تغيب مغنية عن بيتها ـ ولو الى زيارة أهلهــا ـ الا ان أخذ منهــا الضامن لها رشوة ٠٠ » « أبناء الغمر بأنباء العمر ، جـ١ ، ص ١٢٧ » ٠ وهو بهذا يوضــح لنـــا أنه كان يشكل عبئا على الناس جميعا ، وقد جرت عدة محاولات لالغاء هذا المبلغ الذى أطلق عليه الضمان ، لكن سرعان ما كان يتجدد وبخاصة فى دولة سلاطين المماليك الجراكسة أى منذ أواخر القرن الرابع عشر وطوال بقية عصر سلاطين المماليك ، وربما كان الدافع فى عدم الغائه نهائيا هو سوء الأحوال المالية التى أخذت تعانى منها البلاد منذ أوائل القرن الخامس عشر للميلاد ، وكما سـبق أن أشرنا بذلك عند الحديث عن أســـواق الرقيق فى مصر والقاهرة وتأثر أعداد الجوارى بالأحوال الاقتصادية للبلاد وكذلك السياسية٠ وخير دليل على ذلك ما يرويه ابن اياس فى حديثه عن سنة ٧٧٨ هـ من أن السلطان الأشرف شعبان رسم « بابطال ضمان المغانى ٠٠ وكان قد بطل ذلك فى الزمن القديم ، وأعاده وزراء السوء لكثرة ما يتحصل منه من المال الجزيل ، وهو عبارة عن مال كبير ، مقرر على المغانى ، من رجال ونساء ، يردونه فى كل سنة الى الديوان المفرد ٠٠ » ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ١ ، قسم٢ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ » ٠

كما يبدو لنــا أن الكثيرات من هؤلاء الجوارى وضامنـــات المغانى كانت لهن ثروات طائلة وضخمة ؛ ودليل على ذلك ما يذكره

المؤرخ ابن اياس عن ضامنة المغاني التي كانت تدعى « هيفة اللذيذة » من انه « قد رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المال ، ولها حلة للكرا . فلما سمع السلطان ذلك قبض عليها وأقامت في الترسيم ، وعرضت للضرب غير ما مرة ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار .. » « بدائع الزهور ، جـ٤ ، في ذكر حوادث سنة ٩١٨ هـ ، عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغوري ، ص ٣٦ـ٣٧ » .

أما مصدر تلك الثروة فقد كان متعددا ، نذكر منها ما كان يختص بجواري السلاطين والأمراء ، والذي تمثل في المبالغ الطائلة التي أغدقها عليهم هؤلاء بمناسبة وبدون مناسبة تقربا لهن . مثال ذلك ما يرويه ابن اياس في سنة ٧٧٨ هـ عندما تم القبض على السلطان الأشرف شعبان ، فقد تسلمه الأمير أينبك « فحاققه على التحف التي أخذها من الخزائن ، وذخائر الملوك السالفة ، التي كانت بها ، فرد منها بعض شيء ، مما كان أعطاه لأولاده وبناته ونسائه وسراريه » « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ٢ ، ص ١٨١ » ، وما رواه المقريزي أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون عندما اشتكى أحد تجار قيسارية جهاركس طرح وزير السلطان عليه ثيابا بضعف ثمنها كما هي عادته ، فلما سأل السلطان وزيره عن الحقيقة قال له : « هذا ما يشتكي من أمر القماش ، لكنه عليه للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقد هرب مني وأنا أتطلبه ، وهذا المبلغ من ارث جارية تزوجها التاجر وهي من جواري الشهيد الملك الأشرف خليل ماتت عنده ، وخلفت نحو مائة ألف دينار وما بين جواهر وغيرها ، فأخذ الجميع ولم يظهر السلطان على شيء » . وهذه العبارة في حد ذاتها توضح لنا مدى ثراء جارية واحدة من مئات الجواري اللاتي كن عند السلطان الأشرف خليل بن قلاون والتي تزوجها هذا التاجر ثم ورثها بعد مماتها « السلوك ، جـ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ » .

كذلك سبق أن أشرنا أن أحد كبار أمراء المماليك عندما توفى خلف ثروة قدرت آنذاك بنحو اربعة ملايين دينار ، أوصى بأن توزع على عتقائه من المماليك والجوارى « ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦ » ٠ كذلك ما يرويه ابن اياس عن السلطان برقوق سنة ٨٠١ هـ من أنه وهو على فراش الموت فقد كتب وصيته ، فأوصى لزوجاته وجواريه وخدامه ، بمائتين وعشرين ألف دينـار ذهبا « بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٢٥ » ٠

يضاف الى هذا ما كان يغدقه هؤلاء السلاطين والأمراء على الجوارى المغانى بوجه خاص فى المناسبات السعيدة ، مثل ذلك ما يرويه المقريزى أيام الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٣٨ هـ من أنه « ولد للسلطان ابنه صالح من زوجته بنت الأمير تنكز ٠٠ وعمل لها الفرح مدة أسبوع ، حضره ، نساء الأمراء وما منهن الا من عبى لها السلطان تعبية قماش على قدر رتبة زوجها ، فحصل للمغانى شىء كثير حتى ان مغنيات القاهرة جاء قسم كل واحدة منهن عشرة آلاف درهم ، سوى التفاصـيل الحرير والمقانع ـ أى ما تغطى به المرأة رأسها ـ والخلع » « المقريزى : السـلوك ، جـ٢ ، قسـم ٢ ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ » ٠ وما يرويه عن نفس السلطان سنة ٧٣٩ هـ ، حيث يذكر أنه عنـدما قدم نائب السلطنة بدمشـق وهو الأمير سيف الدين تنكز بناء على طلب السلطان له فقد « أنعم السلطان على مغنية قدمت معه من دمشق بعشرة آلاف درهم ، وحصـل لها من الدور ثلاث بدلات زركش ، وثلاثون تعبيـة قمـاش ، وأربع بدلات مقانع وخمسمائة دينار ، فبلغ متحصلها نحو سبعين ألف درهم » « السلوك ، جـ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٦٢ » ٠

هذا الى جانب ما تشير اليه المصـادر المعاصرة عن الجوارى المغانى فى مصر بوجه عام والقاهرة بوجه خاص ، من أنه جرت العادة

لديهن على أنه متى انتهت احداهن من الغناء أو الرقص ، قامت احداهن والدف بيدها لجمع النقوط من الحاضرين ، وكثيرا ما كن يحصلن على مبالغ طائلة من هذا النقوط ، وبخاصة اذا حضر أحد كبار أمراء المماليك . نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما رواه ابن تغرى بردى من أنه عندما حضر الأمير جمال الدين آيد غدى العزيزى « ت ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م » أحد الاحتفالات ، فقد حصلت حسان المغانى منه ومن غلمانه على نحو ستة آلاف درهم ، هذا من أمير واحد فما بالك لو حضر أكثر من أمير « ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ١٦٠ - ١٦١ » . كذلك ما رواه المقريزى فى حوادث سنة ٧٢٧ هـ أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ، من أنه فى العرس الذى أقامه السلطان المذكور للأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة بمناسبة زواج ابنته من أحد كبار أمرائه ويدعى قوصون ، هذا العرس استمر مدة سبعة أيام حافلة بالغناء والطرب وجوق المغانى والراقصات من كل صوب وحدب ، وفى نهاية العرس يقدر المقريزى المبالغ التى حصلن عليها بعشرة آلاف دينار مصرية ، وهو مبلغ بلا شك كبير جدا بمقاييس ذلك العصر ، ولا نشك لحظة فى هذا القدر بسبب ازدهار أحوال مصر الاقتصادية فى تلك الفترة . « المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، قسم١ ، حوادث سنة ٧٢٧ هـ » . ومثال أخير كدليل على ازدهار الأحوال الاقتصادية وحياة البذخ التى عاشها المجتمع معظم ذلك العصر وحتى القرن الرابع عشر الميلادى ما يرويه المقريزى سنة ٧٢٣ هـ أيام الناصر محمد بن قلاون من أنه فى شهر شعبان من هذه السنة « كان عرس أمير على بن أرغون النائب على ابنة السلطان .. وكان فيه ثمانى جوق من مغانى القاهرة ، وعشرون جوقة من جوارى السلطان والأمراء ، خص كل جوقة من جوق القاهرة خمسمائة دينار ومائة

وخمسون تفصيلة حرير ، ولم يحصر ما حصل لجوارى السلطان والأمراء لكثرته » « السلوك ، ج٢ ، قسم ١ ، ص ٢٤ » وما يرويه في سنة ٧٤٦هـ في عهد السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون ، من أنه في شهر رجب من هذه السنة كان « عرس السلطان على بنت طقز دمر ، وعمل لها مهما مدة سبعة أيام بلياليها ، اجتمع فيه نساء الأمراء جميعا . وكانت فيه عدة جوق مغانى ، حصل لهن من الذهب والفضة وتفاصيل الحرير شيء يجل وصفه . وبلغ نصيب ضامنة المغاني بمفردها ثمانين ألف درهم ، سوى بقية المغانى » « السلوك ، جـ٢ ، قسم٣ ، ص ٦٩٠ - ٦٩١ » .

أما عن المناسبات التى تم استخدام الجوارى المغانى فيها فى المجتمع المصرى عامة ومجتمع القاهرة خاصة طوال العصر المملوكى ، فهي مناسبات متعددة ومختلفة في نفس الوقت . فمن المناسبات ما ارتبط ببعض عادات أهل القاهرة فى ذلك العصر وبخاصة من المسيحيين وشاركهم فيها كل الناس ، من ذلك عيد الشهيد والذى كان يتم الاحتفال به فى اليوم الثامن من شهر بشنش من الشهور القبطية ، حيث جرت العادة أن يخرج الرهبان من كنيسة بشبرا على شاطيء نهر النيل أصبع يطلقون عليه أصبع الشهيد ، ثم يغسلونه فى ماء النهر فى مكان معلوم فى شبرا ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ، ويسمون ذلك اليوم عيد الشهيد . فيجتمع في شبرا سائر من في مصر من الأقباط ، ويخرج أهل القاهرة قاطبة ، من أمير ومباشر وغير ذلك ، وينصبون الخيام على شاطيء نهر النيل ، وفى الجزر ، ولا يبق مغن ولا مغنية ولا رب ملعوب حتى يجتمع بشبرا ، وتنفق من الأموال هناك ما لا يحصى ، فلما كانت سنة ٧٥٩ هـ أيام السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية قام الأمير صرغتمش فى ابطال ذلك

الاحتفال ، لما كان يحدث من تجاهر الناس بالمعاصى والفسوق حتى يخرجوا عن الحد ، وبطلت تلك العادة منذ ذلك الحين والى نهاية العصر المملوكى « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٥٦٥ ـ ٥٦٧ » .

وان كان المقريزى فى حديثه عن عيد الشهيد هذا يقول : « وكان من أنزه فرح مصر ، وهو اليوم الثامن من بشنش أحد شهور القبط .. ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق ، الا ويخرج لهذا العيد . فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم الا خالقهم .. وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية شبرا من ضواحى القاهرة ولم يزل الحال على ما ذكر من الاجتماع كذلك الى سنة اثنتين وسبعمائة والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد بن قلاون » وفى موضع آخر يذكر أن هذا العيد بطل من سنة ٧٠٢ هـ الى سنة ٧٣٨ هـ وظل الاحتفال به متوقفا ، ثم استمر بعد ذلك الاحتفال به من سنة ٧٣٨هـ الى سنة ٧٥٥ هـ وبعدها بطل عيد الشهيد والاحتفال به نهائيا من ديار مصر « المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٦٨ من طبعة بولاق » . كما يذكر أنه عقب فترة توقف الاحتفال الأولى ، وفى سنة ٧٣٨ هـ « خرجت مغانى القاهرة ومصر بأسرها ، وتهتكوا بما كان خافيا مستورا من أنواع اللهو ، وقد حشر الناس للفرجة من كل جهة . وألقى الأمراء للناس فى مراكبهم من أنواع الأشربة والحلاوات وغيرها ما يتجاوز الوصف ، فحدث ثلاث ليال بأيامها كان فيها من اللذات وأنواع المسرات ما لا يمكن شرحه » « المقريزى : السلوك » جـ٢ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٢ » .

كما كان الاحتفال بالأعراس من المناسبات العديدة التى شاركت فيها جوق الجوارى المغانى المختلفة ، ومن هذه الاحتفالات يصف لنا ابن اياس عرسا سنة ٩٢٢ هـ أيام السلطان قانصوه الغورى وهو خاص بأحد الأمراء المماليك « فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغانى خمسة وعشرون ريسة» وهذا فى حد ذاته دليل على كثرة فرق الجوارى المغانى بالقـاهرة آنذاك ، وهو أواخر عصر سلاطين المماليك بمصر « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٥ ، ص ٩ » . ومثال آخر عن الاحتفالات العائلية الخاصة بالزواج يذكره المؤرخ ابن الصيرفى فى سنة ٧٨٥ هـ يذكر فيه أن ناظر الخاص السلطانى الشريف وهو سعد الدين نصر الله بن البقرى كان عنده مهم أى فرح « فاجتمع فيه حريمه ومن يعرفونه من أقاربهم قد أخذوا فى التزين بكل ما يملكن من أحسن الملابس وأفخر الجواهر ما لا يمكن وصفه وقيمته ، والملاهى والمغانى يغنيهن .. « وبذلك لم يكن استخدام الجوارى المغانى فى الأفراح العائلية قاصرا على سلاطين وأمراء المماليك بل وأهل مصر بجميع طبقاتهم الاجتماعية » « ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٧٧ » .

ومن الاحتفالات التى جرت العادة على اقامتها وتزخر بالجوارى المغانى هى الاحتفالات التى تقام بمناسبة ختان ولد للسلطان أو أحد الأمراء ، وقد جرت العادة لدى السلاطين أن يختن فى هـذا اليوم مع ابنه جماعة كثيرة من أبناء الأمراء ورجال حاشيته والمقربين اليه ، وربما بعض أبناء أعيان التجار أو أرباب القلم « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢٧١ » . وفى مثل هذا الاحتفال يقول المؤرخ ابن حجر فى حديثه عن السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٧٧ هـ » وفيها فى المحرم طهر السلطان أولاده ، وعمل لهم مهما عظيما أنفق فيه من الأموال ما لا يحصى، وظهر فيه من الفواحش

والقباح ما لا مزيد عليه ، واستمر ذلك سبعة أيام » « ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر ، جـ١ ، ص ١٠٣ » ٠

كذلك كثيرا ما كان يخرج أحد السلاطين وكبار الأمراء المماليك الى شاطىء نهر النيل ويقيمون الخيام هناك حيث يستمتعون بسماع المغانى « ابن حجر : أبناء الغمر ، جـ١ ، ص ٣٥٣ » ٠ ومنها خروج كثير من السلاطين أمثال السلطان قانصوه الغورى الى مقياس الروضة ، أو قبة الأمير يشبك ـ فى حدائق القبة حاليا ـ ومعهم خواصهم وبعض المغنين والمغنيات والعازفين ٠ وغالبا ما كان الغورى يطلب من بعض أمرائه من المماليك أن يرقصوا بين يديه على أنغام الموسيقى « عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغورى ، ص ١٥ ـ ١٧ » ٠

ومن المناسبات السارة التى كان يحتفل بها كثير من أبناء الشعب المصرى بوجه عام وأهل القاهرة بوجه خاص عودة أحد السلاطين من الحج ، من ذلك ما تذكره لنا المصادر المعاصرة عن سنة ٧١٢ هـ أيام الناصر محمد بن قلاون من أنه عندما عاد من الحج فى الثلث الأول من شهر صفر قادما من الحجاز « فلما دخل القاهرة ، زينت له ، ولاقته القضاة الأربعة ٠٠٠ ولاقته المغانى من أثناء الطريق ، وكان يوما مشهودا ، وهذه الحجة الأولى » « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٤٤٤ » ٠ كذلك كان الحال اذا حج أحد كبار أمراء المماليك ٠ الى جانب حب المماليك بوجه عام للغناء ، لذلك كانت مجالس الغناء تعقد فى قصورهم فى الصباح والمساء ، فتغنيهم الجوارى المغنيات مغردات أو جوقات يحملن آلات الموسيقى كالدفوف أو الجنك والطارات والأعواد وغيرها « أحمد تيمور : الموسيقى والغناء عند العرب ، ص ١٢١ » ٠

ومن المناسبات التى تطالعنا المصادر المعاصرة بها والتى تعبر عن مدى حب المماليك للموسيقى والغناء والطرب ، وانتهازهم

لشتى الفرص ، ما كان يحدث عندما يقوم أحد السـلاطين بزيارة بعض كبار أمرائه فى دورهم وقصورهم مثال ذلك ما حدث سنة ٨٢١ هـ عندما نزل السلطان المؤيد شيخ المحمودى الى بيت الأمير جقمق الدوادار بالقرب من بركة الفيل ، فأقام عنده الى آخر النهار ، فانتهز الأمير جقمق هذه الفرصة وأحضر بعض الجوارى المغانى وأرباب الآلات لامتاع السلطان وحاشيته ببعض فنون الطرب والغناء وكان يوما حافلا « ابن اياس نفسه ، جـ٢ ، ص ٣٧ » .

ومن المناسبات السارة أيضا ما كان يتم الاحتفال به لعافية السلطان من مرض ألم به ، فابن الصيرفى يذكر لنا أنه لما عوفى السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٦ هـ ، ففى يوم الجمعة ثامن عشر صفر « اجتمع بحريم السلطان من المغانى والفرح والمدات ما يليق بهم ، وفى الواقع فلله الحمد والشكر على عافية مولانا السلطان نصره الله » « ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ٢ ، ص ٣٣١ » .

كذلك تشير المصادر المعاصرة الى كثرة استخدام السلاطين والأمراء المماليك وغيرهم من أهل الخير لفرق المغانى هذه عند الاحتفال بتدشين بناء جديد ، سواء كان قصرا من القصور ، أو مؤسسة خيرية واجتماعية ، كحمام أو سبيل من الأسبلة أو كتاب لتعليم الأطفال أو مدرسة من المدارس ، أو مستشفى من المستشفيات والتى أطلق عليها آنذاك اسم « البيمارستان » ومثال ذلك ما ذكره ابن اياس عبد الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٣ هـ أنه عندما انتهى العمل فى القصر الكبير ويطلق عليه أيضا القصر الأبلق بالقلعة ، أولم السلطان فى ذلك اليوم ، وبعد أن أخلع على المهندسين والبنائين وغيرهم « ثم أحضر آخر الليل المغانى وأرباب الآلات ، ووقد به وقدة عظيمة ، وبات بالقصر تلك الليلة ، وأحرق حراقة نفط بالرملة ،

وكانت ليلة ملوكية لم يسمع بمثلها » « ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٤٤٥ » .

ويبدو أن الجوارى المغانى انتهزن كل فرصة تتاح لهن للمشاركة فيما يقام من احتفالات ومناسبات عامة أو خاصـــة ، ومن هـذه الاحتفالات ما كان يقام بمناسبة عودة السلطان من جولة يتفقد فيها أحوال الديار المصرية سواء فى الوجه البحرى أم الوجه القبلى ، من ذلك ما يرويه لنا ابن اياس سنة ٨٧٣ هـ أيام السلطان الأشرف قايتباى من أنه عند عودته من سرحته التى طاف بها عدة بلاد من الشرقية والغربية ، فلما دخل القاهرة اصطفت له المغانى النساء على الدكاكين من بين القصرين الى القلعة ، واستمر ذلك الموكب حتى مطلع القلعة ، وكان هذا أول مواكبه الحافلة . « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٤ ٣» .

كذلك كانت عودة أحد جيوش المماليك منتصرا من حملة من الحملات التى شنتها الدولة ضد أعدائها سواء من الصليبيين ببلاد الشام وحتى طردهم منها سنة ١٢٩١ م ، أو ضد الأرمن أو المغول من المناسبات الهامة التى يخرج فيها أهل القاهرة جميعا ومعهم جوق المغانى ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر وصفا لأحد هذه الاحتفالات بمناسبة قدوم الجيش الذى أرسله السلطان الأشرف قايتباى للقضاء على الفتن التى أثارها أحد زعماء التركمان المقيمين على الأطراف الشمالية لدولة سلاطين المماليك فى بلاد الشام ، والتى تزعمها أحد زعماء هذه القبائل التركمانية ويدعى شاه سوار ، فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ دخل الأمير يشبك الدوادار الذى كان قد خرج بجيشه للقضاء على ذلك الثائر ، وقدامه الأمراء ممن كانوا معه فى التجريدة ، « وسارت الأطلاب أمامه شيئا فشيئا ، واصطفت الناس على الدكاكين للفرجة عليه — أى على شاه سوار المقبوض عليه — ولاقته المغانى من رجال

ونساء من باب النصر الى سلم المدرج ، والكوسات عمالة بالقلعة والطبـل والزمر مصفوفا على الدكاكين ، فكان له يوم مشـــهود بالقاهرة ، قل أن يقع مثله فى الفرجة ، فكان من نوادر الزمان » « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٧٧ » .

كما تجب الاشارة هنا أيضا الى أن مشاركة الجوارى المغانى لم تكن قاصرة على الاحتفال بالمناسبات والمواكب السلطانية . بل فى الواقع أنهن لم يدعن فرصة للمشاركة الا وشاركن فيها ، ولا مناسبة من المناسبات الخاصة أو العامة الا وشـــاركن فى الاحتفال بها ، فالمؤرخ ابن اياس يؤكد ذلك فى حديثه عن ســـنة ٨٦٠ هـ أيام السلطان الأشرف اينال ، حيث يذكر أن ناظر الخاص السلطانى ، وهو القاضى يوسف قد حصل له توعك فى جسده ، ثم شفى وطلع الى القلعة للسلام على السلطان ، فأخلع عليه السلطان كما جرت العادة بذلك وكدليل على رضاء السلطان عنه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، بحيث زينت له مدينة القاهرة بأكملها فى ذلك اليوم، وكثرت الزينة بوجه خاص من داره الى القلعة ، وقعدت له جوق المغانى على الدكاكين ، وتخلق الناس بالزعفران ، ووقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود « ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٣٣٥ » .

ومن الاحتفالات الطريفة التى تطالعنا بها المصادر المعاصرة والتى شاركت فيها فرق أو جوق المغانى هذه ، كان الاحتفال بعودة الحق الى نصابه ، مثال ذلك أنه لما تمت سرقة قيسارية جهاركس سنة ٧٨٣ هـ وأخذ منها ما يزيد على عشرة آلاف دينار ، ولما تم القبض على السراق فحمل كل ما سرقوه على عدة حمالين ، وسار بهم والى المدينة ، والمغانى تزفهم حتى طلع الى الأمير برقوق ، فأمر الوالى

بعقوبة الجميع ، فنزل بهم فى الحديد والمسروقات من ورائهم على رؤس الحمالين ، والمغانى تزفهم فى شوارع القاهرة ، فكان يوما مشهودا ، ثم أخذ التجار مالهم بتمامه وكماله « المقريزى : السلوك ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٥٩ » ٠

ولا يفوتنا أن نشير الى أنه كما كان هناك العديد من المناسبات التى ساعدت على ازدهار فنون الطرب والغناء ، وشاركت فيها الجوارى المغانى بنصيب وافر ، فانه كانت هناك أيضا بعض الأزمات التى أدت الى كساد سوقهن ، وبخاصة تلك الفترات التى انتشرت فيها الأوبئة والطواعين ، نخص بالذكر منها ذلك الطاعون الذى انتشر فى الفترة من ١٣٤٧ ــ ١٣٥١ م والذى كان أكثر الأوبئة التى عرفتها البشرية فتكا وهولا ، وهو الذى أطلق عليه المؤرخون فى الشرق اسم « الفناء الكبير » أو « الفصل الكبير » والذى امتد أثره بحيث عم أقاليم الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأنشب مخالبه فى جميع أجناس البشر ، بل امتد أثره حتى شمل أسماك البحر وطير السماء ووحش البر ، وأطلق عليه المؤرخون فى الغرب الأوربى اسم « الموت الاسود » « عن ذلك الطاعون راجع : مقالنا « الفناء الكبير والموت الاسود فى القرن الرابع عشر الميلادى ، دراسة مقارنة بين الشرق والغرب ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والثلاثون ١٩٨٦ ، ص ١٤٩ ــ ١٨٧ » ، وكان من نتيجته أن بطلت الأفراح والأعراس من بين الناس ، فلم يعرف أن أحدا عمل فرحا فى مدة الوباء ، ولا سمع صوت غناء وكان من نتيجة كساد سوق الجوارى المغانى أن تم تخفيض ثلث المبلغ المقرر على كل ضامنة للمغانى من المبلغ المفروض عليها أن تدفعه للدولة ٠ « المقريزى : السلوك ، ج٢ ، قسم ٣ ، ص ٧٨٣ » ٠

الجوارى السميرات :

طبقة خاصة من الجوارى أو صنف آخر قد لا نفطن الى وجوده فى عصرنا الحاضر . وهو مزيج من النوع الذى نسمع عن وجوده فى الحانات اللاتى يغالين فى الفتنه وفى خدمة المترددين على تلك الحانات . والنوع الآخر من الجوارى اللاتى يعشن فى منازل الأسياد الحرائر أو ما يشبه حياتهن • وبعبارة أخرى فان هذا النوع من الجوارى يتألف عادة من الجـوارى البارعـات فى الرقص وفنون الغواية • يعشن فى كنف أسيادهن عيشـة تتراوح بين عيشـة أمثالهن فى عهدة النخاسين والمتسرين • ليس لاصحابهن عليهن غيرة السيد الأنوف ، وليس فى صدورهم حمية المولى المتفرد بسرارية . فهم يسمحون لهن بالخروج الى الناس والزائرين ، وهؤلاء يغدون فى ساعة معينة من النهار أو الليل ، فيجلسون اليهن ويصغون الى غنائهن ، ويمتعون أبصارهم برقصهن البارع ، وجمالهن الماتع ، والسيد يتلطف فى فرش المنزل بالبسط الغـالية . والنمـارق المزركشة ، ويوزع الطنافس فى الزوايا ، ليستريح عليها هؤلاء الزوار ، وهو يتكلف لهم هـذا العناء ويبش فى وجوههم لأنهم يحملون اليه الطرف والهدايا من أفخر الخمور ، وأطيب النقل ، وأندر العطور ، وشفيف النسيج • وهم الى جانب ذلك يبرون السيد أحيـانا بالمـال ، ويرفهون عنه بعض مشـقة الحيـاة والزوار عادة ينتمون الى جميع الطبقات الاجتماعية ، من قضاة وحكام وقواد وشعراء وتجار • وكل منهم يعطف على السيد صاحب الجارية أو الجوارى ، ويسهل له أموره ، ويحل له ما تعقد منها ، ويساعده فى قضاء حاجة ، يقصدون اليه من كل مكان قصى • فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يحمل على الصلة ، ويهدى له ، ولا تقتضى منه الهدية ، لا يهتم هذا السيد بغلاء الدقيق ، ولا عوز السويق ، ولا عزة الزيت ، ولا فساد النبيذ • وهو يستقرض ولا يرد ،

ويسأل الحوائج فلا يمنع • يكنى اذا نودى ، ويفدى اذا دعى ، ويجبى بطريف الأخبـار ، ويطلع على مكنون الأسرار • ويكفيه أصحاب النفوذ من المترددين عليه عادية الشرطة والأعوان ، فيعيش مطمئنا • « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ٩٧ ـ ٩٨ نقلا عن رسالة القيان ، ص ٧٣ ـ ٧٤ » •

وهنا قد يتساءل البعض حقا لقد كان هذا النوع من الجوارى معروفا فى العصر العباسى فى بغداد بوجه خاص ، فما الدليل على وجوده فى القاهرة المملوكية ؟ ولكى نؤكد على وجود هذا النوع فعلا من الجوارى لنا أن نستشهد بالمصادر المعاصرة ، فالمؤرخ الشهير بل عمدة مؤرخى ذلك العصر وهو المقريزى فى حديثه عن السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاون يقول ما نصه « أمة اسمها بياض ، كانت تجيد الغناء ، وكانت من عتقاء الأمير بهادر آص رأس نوبة • وكانت شهرتها قوية ، ولها بالناس اجتماعات فى مجالس أنسهم • فلما بلغ السلطان الناصر محمد خبرها اختص بها ، وحظيت عنده ، فولدت أحمد هذا على فراشه • ثم تزوجها الأمير ملكتمر السرجوانى » « السلوك ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٥٩٣ » • كما أن المؤرخ الشهير ابن تغرى بردى وأحد من يعتمد عليهم فى التأريخ للعصر المملوكى بوجه خاص يذكر عند الحديث عن تاج بن سيفة الشوبكى الدمشقى ، القازانى الأصل ، والى القاهرة سنة ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ قوله : « وداره كبعض الحانات لما بها من أنواع القبائح ، وكان لا يحجب زوجته زهور الجنكية ـ نسبة الى الجنك وهى آلة موسيقية تقارب العود فى حسنها وشكلها مباين لشكل العود ويعجبه محبة بعض أعيان الدولة لها ، وكانت داره بسويقة الصاحب بالقرب من دار سكنها منذ قدم من دمشق الى أن مات » « ابن تغرى بردى المنهل الصافى ، جـ٤ ، ص ٨ » •

وان كانت هاتين الاشارتين هما الوحيدتين التى تم لنا العثور

عليهما فيما يتعلق بهذا النوع من الجوارى ، فيما بين أيدينا من مصادر مختلفة ، الا أنهما تكفيان بلا شك للتدليل على وجود هذا النوع من الجوارى أى الجوارى السميرات وان كنا لا ندرى السر فى صمت كثير من المصادر عن مجرد الاشارة اليهن ، لكن من المعروف أن التاريخ فى تلك الفترة وكذلك المؤرخون ركزوا كل اهتمامهم على التاريخ للحكام بوجه خاص ، وما دام الحكام كان لديهم فرقهم من الجوارى المغانى ، فقد طغت أخبار هذا النوع من الجوارى على ما عداه من أنواع أخرى كانت موجودة فى المجتمع القاهرى فى ذلك العصر . هذا الى جانب أنه مما لا شك فيه أن رواية كل من المقريزى وابن تغرى بردى لا يمكن أن تشوبها شائبة باعتبارهما من المعاصرين الثقة فى كل ما يؤرخون له من أحداث ذلك العصر .

كما أنه بوسعنا أن نتمثل بعض ما كان يدور فى مجالس السميرات من محاورات ومساجلات ، ومن تحايل فى ادخال السرور على قلوب الحاضرين وهم الذين يطلق عليهم أحيانا لفظ «المرابطين» . كما يبدو أن هؤلاء الجوارى السميرات كن يجمعن بين الحذق والحسن والظرف والعشرة ، ومما لا شـــك فيه أيضـــا ، أننا لا نستبعد أبدا أن تلعب الجوارى الســميرات هؤلاء دورا مؤثرا فى الحيــاة العائلية ، عن طريق هدم كثير من الأسر ونشر الفوضى فى المنازل الزوجية . « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ١٠٠ ـ ١٠٣ » . وربما لعبن دورا أيضا فى اثراء الحياة الأدبية لما يمكن أن يتخلل المجالس الخاصة بهن من مطارحات أدبية بين الشعراء والأدباء بعضهم وبعض ، ولعلهم كانوا يجدون فيها ما يجده المحدثون فى صالونات الأدب من متعة ، كما وجد بعضهم فيها مجالا يفرج فيها عن نفسه ، بعد أن حجزهــا طول نهــاره فى وقار عمله الرسمى . « جبور عبد النور : الجوارى ، ص ٩٥ ـ ٩٧ » .

وأخيرا يجب ألا يفوتنا أن نذكر أنه كان من الجوارى من شاركن فى مجالات الخدمة المنزلية وتربية الأطفال ، ومن شاركن فى مجالات فنون الطرب والغناء وحياة اللهو والمجون ، فان المصادر المعاصرة أشارت الى دخول بعضهن فى المذاهب الصوفية ، واتخاذهن الصوفية طريقا وحياة ، من ذلك خوند شكرباى الناصرية زوجة السلطان الملك الظاهر خشقدم التى توفيت عام ٨٧٠ هـ ، والتى لبست الخرقة الأحمدية نسبة الى ولى الله سيدى أحمد البدوى ، وكان أصلها من جوارى الملك الناصر فرج بن برقوق ، ماتت ولها من العمر نحوا من سبعين سنة وزيادة ، فكانت قليلة الأذى ، خيرة ، تحب الفقراء الصوفية وتقرب الناس اليها ، ودفنت بتربة زوجها التى أنشأها بالصحراء ، وأنزلت من القلعة ولم يغط نعشها ببشخاناه — أى المفرش المزركش الذى يغطى النعوش على عادة زوجات السلاطين المماليك ، بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء الصوفية ، وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية حسب وصيتها . « ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٦ ، ص ٣٤٦ » .

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ أحمد خيرت : مركز المرأة فى الاسلام . القاهرة ١٩٨٥ .

٢ ـ أحمد شفيق : الرق فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٦ .

٣ ـ أحمد عبد الرازق « دكتور » : « العـــلاقات الاسرية فى المصطلح المملوكى » المجلة التاريخية المصرية ، العدد ٢٣ لسنة ١٩٧٦ .

٤ ـ أحمد مختار العبادى « دكتور » : قيام دولة المماليك الأولى الاسكندرية ١٩٨٢ .

٥ ـ ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحســبة ـ القاهرة ١٩٧٦ .

٦ ـ ابن ايبك الدواداري : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، القاهرة ، ١٩٧٦ .

: الدرة الزكية فى تاريخ الدولة التركية ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٧ ـ آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٤ .

٨ ـ ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، أجزاء من ١ ـ ٥ القاهرة ، ١٩٨٤ .

٩ ـ ابراهيم على طرخان « دكتور » : امبراطورية غانة ، القاهرة ١٩٧٢ ٠

١٠ ـ ابن بطوطة : الرحلة ، نشر دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ ٠

١١ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، أجزاء ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى ٤ أجـــزاء ـ القاهرة ١٩٨٦ ٠

١٢ ـ ابن تيمية : السياسة الشرعية ـ القاهرة ١٩٧٨ ٠

١٣ ـ جبور عبد النور : الجوارى ٠ القاهرة ١٩٧٦ ٠

١٤ ـ حبشى سيد نصر : المجتمع المصرى فى الشعر المملوكى . رسالة دكتوراه ، بجامعة الأزهر ٠

١٥ ـ ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جـ١ ، جـ٢ ، ١٩٨٤ ٠

١٦ ـ حسن ابراهيم حسن « دكتور » : النظم الاســـلاميه ، القاهرة ١٩٣٩ ٠

١٧ ـ حسن حبشى « دكتور » : رحلة طافور ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

١٨ ـ الحسينى : نفائس المجالس السلطانية ـ القاهرة ١٩٧٨ ٠

١٩ ـ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ٤ ، القاهرة ١٩٦٠ ٠

: انباء الغمر بأبناء العمر ، جـــزءان ـ القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

٢٠ ـ ابن أبى حجلة : ديوان الصبابة ـ القاهرة ١٢٧٩ هـ ٠

٢١ ـ ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، جزءان ، بدون تاريخ طبع ٠

٢٢ ـ رءوف عباس « دكتور » : مصر وعالم البحر المتوسط ـ القاهرة ١٩٨٦ ٠

٢٣ ـ السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ١ القاهرة ، ١٩٦٧ ٠

٢٤ ـ السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ـ القاهرة ١٩٤٨ ٠

٢٥ ـ سعيد عاشور « دكتور » : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

٢٦ ـ الامام الشافعى : كتاب الأم ـ خمسة أجزاء ، القاهـرة ١٩٨٥ ٠

٢٧ ـ الشربينى : هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، القاهرة ١٩٦٨ ٠

٢٨ ـ صبحى لبيب « دكتور » : « سياسة مصر التجارية فى عصر الأيوبيين والمماليك » ، المجلة التاريخية المصرية ـ العدد الثامن والعشرون والتاسع والعشرون ٨١ ـ ١٩٨٢ ٠

٢٩ ـ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ٣ أجزاء ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢ ٠

: انباء الهصر ، القاهرة ١٩٧٠ ٠

٣٠ ـ عبد العزيز محمود عبد الدايم « دكتور » : الرق فى مصر فى العصور الوسطى القاهرة ١٩٨٤ ٠

٣١ ـ عبد الوهاب عزام « دكتور » : مجالس السلطان الغورى ـ القاهرة ١٩٧٦ ٠

٣٢ ـ عبد اللطيف ابراهيم « دكتور » : وثيقـــة وقف مسرور ابن عبد الله الشبلى الجمدار ، القاهرة ، ١٩٧٠ ٠

٣٣ ـ على السيد على « دكتور » : « التبادل التجارى بين مصر وبلاد التكرور وانعكاساته على أحوال مصر المملوكية » ، بحث مقدم لندوة العرب فى افريقيا بجامعة القـــاهرة ـ ابريل ١٩٨٧ ٠

٣٤ ـ على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، القـــاهرة ١٩٨٠ ٠

٣٥ ـ الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٨٧ ٠

٣٦ ـ ابن الفرات : تاريـــخ الدول والملوك ، ج ٨ ، بيروت ١٩٣٩ ٠

٣٧ ـ بن فضل الله الغمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار نشر د٠ أيمن سيد فؤاد ، القاهرة ١٩٨٧ ٠

٣٨ ـ فوزى محمد آمين « دكتور » : المجتمـــع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ، القاهرة ١٩٨٢ ٠

٣٩ ـ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا ، ج٢ ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

٤٠ ـ محمـــد عبد الرازق مرزوق « دكتور » : الناصر محمد ابن قلاون ، سلسلة أعلام العرب ٢٨ ٠

٤١ ـ محمد قنديل البقلى : الطرب فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٤ ٠

٤٢ ـ محمد كامل الفقى « دكتور » : الأدب فى العصر المملوكى ـ القاهرة ، ١٩٧٦ ٠

٤٣ ـ محمد محمد أمين « دكتور » : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

٤٤ ـ الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ٠

٤٥ ـ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، أربعة أجـــزاء ـ القاهرة ، ١٩٥٦ ـ ١٩٧٣ ٠

: الخطط ، طبع بولاق ـ ٣ أجزاء ١٩٢٣ ٠

٤٦ ـ نبيل عبد العزيز « دكتور » : الطـــرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك ، ١٩٨٠ ٠

٤٧ ـ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٩ ، القاهرة ١٩٧٣ ٠

٤٨ ـ نعيم زكى « دكتور » : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣ ٠

فهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر
اعداد رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشـــواطىء المصرية فى العصور الوسطي
عليــة عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاه
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

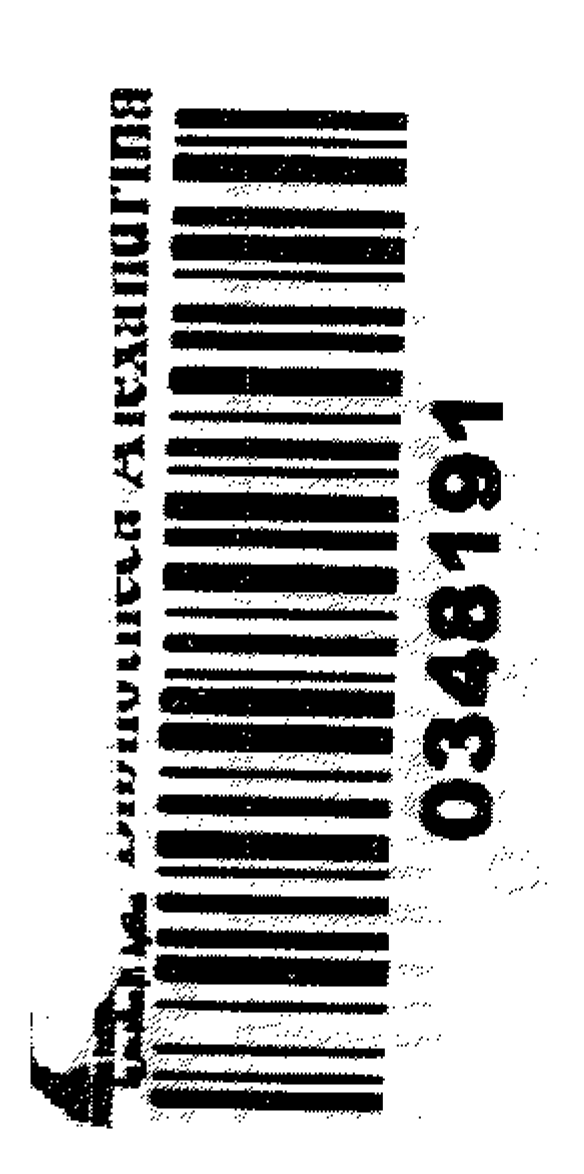
العدد القادم : مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٩٠/١٩٨٨

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٨٣٨ - ٩

من المعروف ان الرق لم يأت به الإسلام ، وإنما وجد قبل الإسلام ، وكان دعامة ترتكز عليها الحياة الاقتصادية فى شبه جزيرة العرب ، بنفس القدر الذى كان دعامة للحياة الاقتصادية فى المجتمعات الأوربية .

فلذلك حين أمر الإسلام الرق أقره فى صورة تؤدى إلى القضاء عليه تدريجياً ودون إحداث انقلاب فى حياة الناس يؤثر على مصالحهم الاقتصادية وأمور معايشهم . ولما كان قدوم أعداد كبيرة من الجوارى إلى القاهرة يتطلب وجود أسواق خاصة هى التى عرفت باسم «أسواق الرقيق» كما كان يؤثر بالضرورة على الحياة الاجتماعية ، بل والسياسية أيضاً ، فمن هنا اهتم الدكتور على السيد محمود بدراسة هذه الظاهرة التاريخية ، مستعيناً فى ذلك بعدد ضخم من المصادر والمراجع التاريخية .



مطابع الهيئة المصرية العامة ل

١٠٠ قرش